حقوق النبي صلى الله عليه وسلم

بين الإجلال والإخلال

قدَّم له

فضيلة الدكتور الشيخ صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء في السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

ح مجلة البيان ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
مجلة البيان (الرياض)
حقوق النبي ﷺ بين الإجلال والأخلال - الرياض
١٩٠ ص؛ ١٧×٢٤
ردمك: ٧-٠٠٤-٣٩-٩٩٦٠
١ - الإيمان (الإسلام) ٢ - الشمائل المحمدية أ - العنوان
ديوي ٢٤٠ ٢٢/٠٣١٤

رقم الإيداع ٠٣١٤ / ٢٢

ردمك: ٧-٠٠٤-٣٩-٩٩٦٠

تقريظ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فإن الله - تعالىٰ - أوجب علينا طاعته وطاعة رسوله محمد ﷺ، وجعل لله حقوقاً علىٰ عباده لا يشاركه فيها أحد لا نبي مرسل ولا ملك مقرب، وجعل لنبيه حقوقاً علىٰ أمته لا يساويه فيها أحد من الخلق.

قال العلامة ابن القيم:

لله حق ليس لعبده ولعبده حق هما حقان

لا تجعلوا الحقين حقاً واحداً من غير تمييز ولا فرقان

وحقه ﷺ علينا محبته وطاعته واتباعه وتوقيره واحترامه من غير غلو ولا إفراط، كما قال ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارىٰ ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله»، وقد نهانا ﷺ عن الابتداع في الدين فقال: «وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»، ومما ابتدع في الدين إحداث الاحتفال بمولده ﷺ حيث لم يفعله ﷺ ولا أمر به، ولا أقر من يفعله، وقد قال - عليه الصلاة والسلام -: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد».

ومن حقه علينا ومن مقتضىٰ محبته اجتناب ما نهىٰ عنه، وقد نهىٰ عن البدع

ومنها بدعة المولد التي ما أنزل الله بها من سلطان .

وفي هذا المجموع المبارك بيان بدعية هذا الاحتفال من عدد من العلماء . ولم يبق عند من يقيمون هذه البدعة إلا المكابرة والمشاقة .

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ [النساء : ١١٥] .

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم

كتبه

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء في السعودية

المقدمـــة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، واقتفى أثره واتبع هداه، وبعد:

فإنه من البدهي أن إيمان المسلم لا يكون إلا بمحبة النبي ﷺ وتعظيمه، فهو آخر رسل الله وخاتم النبيين؛ يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وهو صاحب الخُلُق العظيم بشهادة رب العالمين: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، ليِّنٌ ليس فظّاً ولا غليظ القلب: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، حريص على هداية البشر، يكاد يُهلك نفسه حزناً وغمّاً من شدة حرصه على إيمانهم: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]. رؤوف رحيم بالمؤمنين: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ومهما سردنا من موجبات محبته وعظمته ﷺ فلن نوفيه حقه، ولقد نبَّه القرآن إلى هذه الحقوق، فكان مما أرشد إليه: قوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٦، ٥٧]، وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفتح: ٨، ٩]، وقوله ـ جل جلاله ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ

عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ١، ٢]. . إلىٰ غير ذلك من الآيات التي تبين قدر سيِّد ولد آدم وعظمته.

ولقد رأينا نموذجاً لهذه المحبة وهذا التعظيم عند من عرفوا قدره حق المعرفة، أهل السبق بالإيمان والأعمال الصالحة، صحابته ﷺ، فهم النموذج في محبته وتعظيمه ومتابعته والتضحية من أجله، وكل من بعدهم يقترب من هذا النموذج أو يبتعد بحسبه، ونكتفي بذكر مثالين يوضحان محبتهم وتعظيمهم له ﷺ: فعروة بن مسعود الثقفي - رضي الله عنه - عندما كان مشركاً وفاوض النبي ﷺ في صلح الحديبية رأىٰ من الصحابة ما يستحق التسجيل وإنذار قومه، فقال عندما رجع إلىٰ قريش: «أي قوم، والله لقد وفدت علىٰ الملوك ووفدت علىٰ قيصر وكسرىٰ والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون علىٰ وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّون النظر إليه تعظيماً له»[١].

وهذا أنس بن النضر - رضي الله عنه - في غزوة أحد، عندما انجلت الغمُّة وُجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة ورمية وطعنة، ولم يعرفه أحد إلا أخته الرُّبِّيع، عرفته ببنانه، وقد أرسل الرسول ﷺ زيد بن ثابت بعد المعركة ليتفقده، فوجده وبه رمق، فرد سلام الرسول ﷺ ثم قال: «أجدني أجد ريح الجنة، وقُلْ لقومي من الأنصار: لا عذر لكم عند الله أن يُخلَص إلىٰ رسول الله ﷺ وفيكم شفر يطرف»، ودمعت عيناه[٢].

---

(١) أخرجه البخاري: ٣/ ١٧٨، رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢، الفتح: ٥/ ٣٨٨.

(٢) رواه ابن إسحاق بإسناد رجاله ثقات، كما جاء في المجمع، انظر السيرة النبوية في ضوء مصادرها الأصلية، د. مهدي رزق الله أحمد، ص ٣٨٧.

ولا شك أن هذا النموذج نفسه كان أثراً من آثار عظمته ﷺ، ولكن عندما ضعف نور النبوة في حياة الأمة وقلَّ تمسكها بكتاب ربها وسنَّة نبيها، ضعف هذا التعظيم، فحاول بعض الغيورين - جهلاً أو غفلة - جبر هذا الضعف بإحداث بعض المظاهر والاحتفالات التي لم يعرفها خير من عظَّم المصطفى ﷺ، كما ساعد الفكر الإرجائي الذي صاحب هذا الانحراف في أن تكون محبة الرسول ﷺ مجرد كلمات مدائح يتغنى بها المنشدون في الموالد والمناسبات من غير أن يكون لهذه الكلمات أي أثر من عمل واتباع لمن يزعمون محبته وتعظيمه، أضف إلى ذلك أنه كلما اشتد الجهل والغفلة والادعاء زاد الغلو والانحراف الذي حذر منه المصطفى ﷺ نفسه في أكثر من حديث.

ولكن هذا الحب الزائف والغلو المنظوم انتشر بين قطاعات عريضة من الأمة؛ نظراً لأنه اتخذ أشكالاً ووسائل شعبية؛ فالإنشاد تميل إليه النفوس، والموالد والاحتفالات تعد مناسبات ترفيه ولهو - أو تنفيس - لفئات تعيش حياة قاسية، كما تعد مواسم ارتزاق لبعض المنتفعين، ومناخاً لنشر البدعة يستغله بعض المغرضين، إضافة إلى ما يدعيه بعض الطيبين من كونها فرصة للتذكرة والدعوة الدينية.

لذا: كان لا بد من تجلية الحكم الشرعي في مثل هذه الموالد، وكان لا بد أيضاً من إلقاء الضوء على نشأة المدائح النبوية وتطورها عبر السنين، مع بعض اهتمام بأشهر قصيدة في هذا المجال، وهي قصيدة البردة للبوصيري.

على أن الأمر يجب أن يُرد إلى أصوله ولا يكتفى فيه بمعالجة الجزئيات، وأصل هذا الانحراف بدأ من ادعاء المحبة، والقرآن حسم دلائل المحبة في آية قاطعة: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [**آل عمران**: ٣١] فالمحبة تقتضي الاتباع وليس الإحداث والابتداع، فكان

لا بد من إيضاح جوانب قضية الاتباع، كما كان من الأهمية بمكان إيضاح المنهج غير المبتدع في المحبة والتعظيم، وهو منهج أهل السنة والجماعة.

وهنا أمر آخر، وهو أنه في الوقت الذي نستنكر فيه تلك الممارسات المبتدعة -التي اختزل فيها حب المصطفى ﷺ- فإننا نستنكر أيضاً الجفاء في محبة النبي ﷺ، والتقصير في القيام بواجباتها، فكما أن الغلو مردود، فكذلك الجفاء مرفوض بكل صوره وأشكاله.

وهذا كله ما قام به الإخوة الكتَّاب -جزاهم الله خيراً- في مقالات سبق نشرها مختصرة على صفحات مجلة البيان، نضعها -بأصولها كاملة- بين أيدي القراء والدعاة؛ إتماماً للفائدة، ولتكون أحد المصابيح التي تنير طريق الحق -إن شاء الله تعالى-.

اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسان.

مجلة البيان - المنتدى الإسلامي

حقوق النبي صلى الله عليه وسلم

بين الإجلال والإخلال

- ■ دمعة على حب النبي ﷺ — عبد الله بن صالح الخضيري
- ■ محبة النبي ﷺ وتعظيمه — عبد اللطيف بن محمد الحسن
- ■ اتباع النبي ﷺ في ضوء الوحيين — فيصل بن علي البعداني
- ■ حكم الاحتفال بذكرى المولد النبوي — الشيخ الدكتور: صالح بن فوازن الفوزان
- ■ ظاهرة الاحتفال بالمولد النبوي وآثارها — عبد الكريم الحمدان
- ■ مظاهر الغلو في قصائد المديح النبوي — سليمان بن عبد العزيز الفريجي
- ■ قوادح عقدية في بردة البوصيري — د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

دمعة على حب النبي ﷺ

نظرات متأملة للواقع في حب النبي ﷺ

عبد الله بن صالح الخضيري

دمعة على حب النبي ﷺ

نظرات متأملة للواقع في حب النبي ﷺ

عبد الله بن صالح الخضيري

قلّب عينيك في الملكوت ترَ الجمال بديعاً، وافتح قلبك لأسرار هذا الجمال ترَ الحياة ربيعاً، وخُض في معترك الحياة تكن لك الحياة جميعاً، واجمعْ لي قلبك أجمعْ لك عقلي، وامنحني يدك فإني لأرجو أن أمنح لك حياةً هادئة سعيدة بإذن الله، وافتح صدرك أملأه دفئاً ومحبةً وصدقاً، كن معي لأكون لك وكما تحب.

وأعطني دمعةً تحيي بها قلبك، وتسلّي بها نفسك، فدموعنا مداد للفكر، وعبراتنا ثباتٌ على المبدأ، وبكاؤنا دوامٌ على النهج والمنهج، قلوبنا أهديناها بالحب إلى غير محب ففقدنا أعزَّ ما نملك، وإذا بنا نتحسس أماكنها وقد تَوَهَّمنا وجودها، إننا بحاجة إلى أن نحب ولكن لا نغلو، ونهوى ولكن لا نفرط، ونعشق ولكن بتعفف.

إن القلب هو الكنز الذي لا يقرؤه إلا من يملكه، وإن راحة الضمير أنوارٌ تتلألأ في الغَلَس، وينابيع متفجرة في الصحارى، وكنوز داخل البيوت المهجورة، كم من الوقت ضاع لأجل الحب وفي دوّامته؟ وكم من العقول ذهبت لأجل الحب وفي دائرته؟ ونغرق يومنا في أبجديات الحب!! فمحب يعيش بين الذكرى والنسيان، ومحب يتيه بين الوصل والحرمان، حبٌّ يُسعد في الاسم، ويُشقي في الرسم، جمالٌ في الصورة، وغموضٌ في الحقيقة.

الحب تاجٌ لكنه من حديد، وكنزٌ لكنه من تراب، ومعدنٌ لكنه من سراب، وأي حبٍ يُدَّعى فإنه ناقصٌ إذ العلاقات بين الآدميين بنيت على المصالح - في الغالب - وإن تنوعت صور الجمال أو تجمَّلت الصور. وإن لكل فؤادٍ نزعةَ حبٍّ عذريةً تفيضُ بعذبِ الهوى ونميره، ولو اطَّلع الناس على قلوب القساة لوجدوا

فيها أنهاراً متدفقة من الحب والرحمة، ولكنها تصب في أرض قيعان.

وإني أحمل راية بيضاء لبيض القلوب أن تتوجه بالحب إلىٰ أصدق الحب وأبقاه، وأبقىٰ البر وأوفاه إلىٰ....

أشواقنا نحو الحجاز تطلّعت ... كحنين مغترب إلى الأوطانِ
إن الطيور وإن قصصتَ جناحها ... تسمو بهمّتها إلى الطيرانِ

لن أقول: «كانت الحياة قبل البعثة ظلاماً»؛ إذ لا يجهل ذلك أحد، ولن أقول: «كان الظلم، ولم يكن غيره»؛ إذ لا أحد يشكُّ في ذلك، ولن أقول: «كان الحق للقوة»، و «كانت الحياة للرجل لا للمرأة»؛ إذ الناس أجمعوا علىٰ ذلك، ولكني أقول: مع البعثة وُلدت الحياة، وارتوىٰ الناس بعد الظمأ:

لمّا أطلَّ محمدٌ زكت الرُّبى ... واخضرَّ في البستان كل هشيم

وكان من المبشرات بميلاد الحياة ما صادف المولد النبوي من إهلاك أصحاب الفيل؛ فإنه بشرىٰ بإهلاك الطاغوت والطغاة، وولادةٌ لفجر العدالة والحياة، كما أن في إهلاكهم اجتماعاً لكلمة قريش وتوحدها، ولذا أنزل الله ـ تعالىٰ ـ بعد سورة الفيل سورة قريش، بياناً لسبب من أسباب إهلاك أصحاب الفيل وهو أنه لتأتلف قريش، ومن بعد ذلك كلّه ذكَّر قريشاً بنعمتين عظيمتين، أُولاهما: أن أطعمهم من جوع، وتمثَّل ذلك في رحلة الشتاء ورحلة الصيف، وثانيهما: أن آمنهم من خوف، وهنا كلمة «خوف» جاءت نكرة دالة علىٰ العموم، فيدخل في ذلك كلُّ خوفٍ ألمَّ بهم فأمنوا منه، كما في قصة أصحاب الفيل وأبرهة الأشرم، أو خوفٍ يحدث لهم بعد ذلك ظاهراً كبعثة محمد ﷺ، وإنما هو رحمةٌ وأمنٌ وأمان لهم ظاهراً وباطناً، حينما يظهره الله ـ تعالىٰ ـ كما أهلك الله أصحاب الفيل لكي تتعلق القلوب بربِّ البيت الذي أهلك البغاة، وكيف يكون شكرهم له.

وقاية الله اغنت عن مضاعفةٍ ... من الدروع وعن عالٍ من الأطمِ

ومما كان ممهِّداً ومقدِّماً لدعوة الإيمان التي حملها محمد ﷺ: اجتماع النفوس على نصر المظلوم، وردِّ الفضول على أهلها، وبه سمي الحلف، وفيه انتصار للعدالة، وإنْ كان ذلك على نطاق ضيق لكن: «لا شك أن العدل قيمةٌ مطلقةٌ وليست نسبيةً، وأن الرسول ﷺ يظهر اعتزازه بالمشاركة في تعزيز مبدأ العدل قبل بعثته بعقدين؛ فالقيم الإيجابية تستحق الإشادة بها حتى لو صدرت من أهل الجاهلية»(١).

وقد قال النبي ﷺ عن ذلك الحلف: «شهدت حلف المطيبين مع عمومتي وأنا غلام، فما أحب أن لي حمر النعم وأني أنكثه»(٢)، وسمَّاه: المطيبين؛ لأن العشائر التي عقدت حلف المطيبين هي التي عقدت حلف الفضول، وإنما كان حلف المطيبين قبل ميلاد محمد ﷺ بعد وفاة جده قصي(٣).

ومن ذلك ما روى البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «كان يوم بُعاث يوماً قَدَّمه الله لرسوله ﷺ، فَقَدِم رسول الله ﷺ وقد افترق مَلَؤُهم، وقُتلت سرواتهم، وجُرِّحوا، فقدَّمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم الإسلام»(٤).

هذا على العموم وفي الظاهر. أما ما كان ممهداً له ﷺ في ذاته فإن الخلوة والتعبد من أهم سمات العظماء(٥)، فإنه بعد ذلك ممتلئٌ بما فرّغ نفسه له؛ فقد

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري: ١/ ١١٢.

(٢) أخرجه أحمد برقم ١٦٥٥، وصححه أحمد شاكر، كما أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني فيه برقم ٤٤١/ ٥٦٧، وفي السلسلة الصحيحة برقم ١٩٠٠.

(٣) السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري: ١/ ١١٢، وانظر تعليق أحمد شاكر على الحديث كما في المسند: ٣/ ١٢٠ مكتبة ابن تيمية.

(٤) البخاري، رقم ٣٧٧٧.

(٥) فائدة: قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٢٦): «ولا بد للعبد من أوقات ينفرد فيها بنفسه في دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبة نفسه وإصلاح قلبه، وما يختص به من الأمور التي لا يشركه فيها غيره، فهذا يحتاج فيها إلى انفراده بنفسه، إما في بيته، كما قال طاووس: (نعم صومعة الرجل بيته، يكف فيها بصره ولسانه)، وإما في غير بيته».

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «كان رسول الله ﷺ يتحنث في غار حراء الليالي أولات العدد قبل أن يرجع إلىٰ أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلىٰ خديجة فيتزود لمثلها، حتىٰ فجئه الحق وهو في غار حراء»(١).

ومما كان مطمئناً له ﷺ قبل نزول الوحي الرؤيا الصادقة؛ فكان لا يرىٰ رؤياً إلا جاءت مثل فلق الصبح(٢).

ومع بشريته ﷺ وإعلانه بإعلان القرآن لذلك، إلا أنه ذكر من المعجزات والآيات ما كان آية علىٰ علو منزلته، ورفيع قدره؛ فقد حدَّث ﷺ: أن حجراً كان يُسلم عليه قبل النبوة(٣). فللَّه ما أعظم هذا القائد، وما أصدقه! فما عرفت مكة أميناً كأمانته ﷺ، فلما أظهره الله بالحق الذي معه لم يكن عندهم ظاهراً كذلك:

لقبتموه أمين القوم في صغر وما الأمين على قولٍ بمتَّهم

ولعلي أقف عند هذا الحد وأدخل فيما أردت من موضوع الحب لرسول ﷺ؛ فإن الحب أسمىٰ العلاقات، ولعله أرقها، وإنما يبعث علىٰ كتابة مثل هذا الموضوع قول الرسول الكريم ﷺ: «أنت مع من أحببت»(٤)، وأي سعادة تقارب تلك السعادة في الحب؟ وأي نجاح في النهاية يوازي ذلك الحب؟ يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وإنما ينفع العبدَ الحبُّ لله لما يحبه الله من خلقه كالأنبياء والصالحين؛ لكون حبهم يقرب إلىٰ الله ومحبته، وهؤلاء هم الذين يستحقون محبة الله لهم»(٥).

وإذا تعلق قلب العبد بالله أحب كل ما يقرب إلىٰ الله ويزيده، ويبقىٰ أنه أشد حباً لله، فلا حب يوازي ذلك الحب، وإنما يحب بحب الله وله. قال ابن

(١، ٢) البخاري، رقم ٣، ومسلم، رقم ١٦٠، واللفظ له.
(٣) مسلم، رقم ٢٢٧٧.
(٤) البخاري، رقم ٦١٦٧، مسلم، رقم ٢٦٣٩.
(٥) الفتاوىٰ: ١٠/ ٦١٠.

تيمية : «فإنك إذا أحببت الشخص لله كان الله هو المحبوب لذاته، فكلما تصورته في قلبك تصورت محبوب الحق فأحببته، فازداد حبك لله، كما إذا ذكرت النبي ﷺ والأنبياء قبله، والمرسلين وأصحابهم الصالحين، وتصورتهم في قلبك؛ فإن ذلك يجذب قلبك إلى محبة الله المنعم عليهم، وبهم إذا كنت تحبهم لله؛ فالمحبوب لله يجذب إلى محبة الله، والمحب لله إذا أحب شخصاً لله فإن الله هو محبوبه؛ فهو يحب أن يجذبه إلى الله تعالى، وكل من المحب لله والمحبوب لله يجذب إلى الله»(١).

وإن مما دعاني إلى كتابة هذه الأحرف ما أراه من تخلي القريب الأدنى عن سيرة المصطفى ﷺ وسنته، وتحليهم بما يؤسف له من رموز الفكر والأدب في جميع أحاديثهم، وإن هذا نكس ونقص في الفطرة والتعليم، وإلا فقد قال ـ تعالى ـ: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١].

وما أراه من هجوم البعيد على سنة الكريم ﷺ وسيرته، مما تبثه وسائل الإعلام المختلفة تصريحاً وتلميحاً، ظاهراً وباطناً، والله المستعان.

«وإنه لنافع للمسلم أن يقدر محمداً بالشواهد والبينات التي يراها غير المسلم، فلا يسعه إلا أن يقدرها ويجري على مجراه فيها؛ لأن مسلماً يقدر محمداً على هذا النحو يحب محمداً مرتين: مرة بحكم دينه الذي لا يشاركه فيه غيره، ومرة بحكم الشمائل الإنسانية التي يشترك فيها جميع الناس»(٢).

وحسبي إن أنا خضت في هذا الموضوع أن أنال محبة القوم، وحسبي من القلادة ما أحاط بالعنق، ومن السوار ما أحاط بالمعصم:

---

(١) الفتاوى: ١٠/٦٠٨.

(٢) مجموعة العبقريات، لعباس العقاد، ص ١٠.

أسيرُ خلف ركاب النُجْبِ ذا عرج ... مؤملاً كشف ما لاقيت من عوج
فإن لحقتُ بهم من بعد ما سبقوا ... فكم لربِّ الورى في ذاك من فرج
وإن بقيت بظهر الأرض منقطعاً ... فما على عرج في ذاك من حرج

واسمح لي أن انتقل وإياك إلىٰ جيل تعيش معهم الأمن والسكينة بعد أن ذقت من الدنيا خوفاً وهلعاً، ودعني أستل من قلبك خيطاً أبيض نلتمس به الصلة بيننا وبينهم، وأعرني دمعة تخفف بها الهوة بيننا وبين رسول الله ﷺ وتوقيره. قال صاحب الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ ﷺ: (ذكر عن مالك أنه سئل عن أيوب السختياني؟ فقال: «ما حدثتكم عن أحد إلا وأيوب أوثق منه»[(١)] . وقال عنه مالك: «وحجّ حجتين، فكنت أرمقه، ولا أسمع منه، غير أنه كان إذا ذكر النبي ﷺ بكىٰ حتىٰ أرحمه، فلما رأيت منه ما رأيت، وإجلاله للنبي ﷺ كتبت عنه»[(٢)] .

وقال مصعب بن عبد الله: «كان مالك إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه وينحني حتىٰ يصعب ذلك علىٰ جلسائه، فقيل له يوماً في ذلك، فقال: لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم عليَّ ما ترون»، وذكر مالك عن محمد بن المنكدر ـ وكان سيد القراء ـ: «لا نكاد نسأله عن حديث أبداً إلا يبكي حتىٰ نرحمه»[(٣)]، ولقد كنت أرىٰ جعفر ابن محمد ـ وكان كثير الدعابة والتبسم ـ فإذا ذكر عنده النبي ﷺ اصفرَّ لونه، وما رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا علىٰ طهارة، ولقد اختلفت إليه زماناً فما كنت أراه إلا علىٰ ثلاث خصال: إما مصلياً، وإما صامتاً، وإما يقرأ القرآن، ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله. وكان الحسن ـ رحمه الله ـ إذا ذكر حديث حنين الجذع وبكائه[(٤)] يقول: «يا معشر

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٦/ ٢٤.
(٢) المصدر السابق: ٦/ ١٧.
(٣) حلية الأولياء: ٣/ ١٤٧، وسير أعلام النبلاء: ٥/ ٣٥٤، ٣٥٥.
(٤) البخاري، رقم ٣٥٨٤.

المسلمين، الخشبة تحن إلىٰ رسول الله ﷺ شوقاً إلىٰ لقائه؛ فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه»(١).

وكان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النبي ﷺ فينظر إلىٰ لونه كأنه نزف منه الدم، وقد جف لسانه في فمه هيبة لرسول الله ﷺ، ولقد كنت آتي عامر بن عبد الله بن الزبير فإذا ذكر عنده النبي ﷺ بكىٰ حتىٰ لا يبقىٰ في عينيه دموع:

نزف البكاء دموع عينك فاستعر عيناً لغيرك دمعها مدرارُ

ولقد رأيت الزهري ـ وكان لَمِنْ أهنأ الناس وأقربهم ـ فإذا ذكر عنده النبي ﷺ فكأنه ما عرفك ولا عرفته.

ولقد كنت آتي صفوان بن سليم، وكان من المتعبدين المجتهدين فإذا ذكر النبي ﷺ بكىٰ، فلا يزال يبكي حتىٰ يقوم الناس عنه ويتركوه)(٢).

وقال عمرو بن ميمون: «اختلفت إلىٰ ابن مسعود سنة فما سمعته يقول: قال رسول الله ﷺ، إلا أنه حدّث يوماً فجرىٰ علىٰ لسانه: قال رسول الله ﷺ، ثم علاه كربٌ، حتىٰ رأيت العرق يتحدّر عن جبهته، ثم قال: هكذا إن شاء الله، أو فوق ذا، أو ما دون ذا، ثم انتفخت أوداجه، وتربّد وجهه وتغرغرت عيناه»(٣).

وبلغ معاوية أن كابس بن ربيعة يشبه برسول الله ﷺ، فلما دخل عليه من باب الدار قام عن سريره وتلقّاه وقبّل بين عينيه، وأقطعه المِرغاب، لشبهه صورة رسول الله ﷺ(٤).

وإني سائل بعد تلك الصور المتحدثة: أين نحن من سيرتهم؟ وأين حالنا من

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٥٧٠، وجامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، ص ٥٧٢، مكتبة ابن تيمية.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ ﷺ، للقاضي عياض، ص ٥٩٨، بتصرف وإحالة.

(٣) المصدر السابق: ٢/ ٥٩٩.

(٤) المصدر السابق: ٢/ ٦١٠.

حالهم؟ وما أثر الحب عندنا؟ وما أثره عندهم؟ بل وما صدق ما ندَّعي؟ وما صدق ما لم يدَّعوه؟ وأين حقيقة ما ندَّعي؟ وما دلائل المحبة عندهم؟

لقد قام في قلوبهم ما قصرت هممنا عن أن تقوم بأقله، وأحيوا في شعورهم ما ماتت مشاعرنا دونه، وتعلقت أبصارهم فيما وراء الطرف، في حين لم تتجاوز أبصارنا أطرافنا، ألا رجل لم تقعد به همته ولم يتأخر به عمله؟! ألا صادق يترجم المحبة قولاً وعملاً وغيرة؟! ألا فارس لا يرجع إلا بإحدىٰ الحسنيين؟!

أيها المُحبُّون: لقد تباعد بنا الزمن، واستنسرت الفتن، واشتغل الأكثرون بالحطام من المهن، غاب عنا الحب وإن ادعيناه، ونسينا الواجبات فكانت من أحاديث الذكريات، نتحدث عن السنة النبوية والهدي النبوي لكن لا ترىٰ جاداً في الاتباع، ولا صادقاً في الكلام - إلا قليلاً -:

وكلٌّ يدَّعي وصلاً بليلى وليلى لا تُقر لهم بذاكا

مظاهر الجفاء مع النبي ﷺ:

ولمزيد من التوضيح فلنعرض أنفسنا علىٰ السنة المطهرة، علىٰ صاحبها أفضل الصلاة وأزكىٰ التسليم، ولنعرض بعض المظاهر التي أحسبُ أنها كافية في إيضاح الجفاء الذي اتصف به بعضنا مع رسول الله ﷺ وسنته، لعل الله أن يزيد المهتدي هدىٰ، وأن يبدل الجافي إلفاً، والبعيد قرباً، والغالي قصداً.

١ - البعد عن السنَّة باطناً وظاهراً:

يأتي في أول تلك المظاهر البعد عن السنَّة باطناً؛ وذلك بتحول العبادات إلىٰ عادات ونسيان احتساب الأجر من الله، أو ترك متابعة الرسول ﷺ وتعظيمه، والمحبة القلبية الخالصة له، ونسيان السنن وعدم تعلمها، أو البحث عنها، وعدم توقير السنة، والاستخفاف بها باطناً.

ومن ذلك أيضاً: البعد عن السنَّة ظاهراً؛ وذلك بترك العمل بالسنن الظاهرة الواجب منها والمندوب، وعلىٰ سبيل المثال سنن الاعتقاد ومجانبة البدعة وأهلها بل وهجرهم، أو السنن المؤكدة مثل: سنن الأكل، واللباس، أو الرواتب، أو الوتر،

أو ركعتي الضحىٰ، وسنن المناسك في الحج والعمرة، والسنن المتعلقة بالصوم في الزمان والمكان، فصارت السنَّة عند بعض الناس كالفضلة ـ والله المستعان ـ.

ولعمر الله لا يستقيم قلب العبد حقيقة حتىٰ يعظِّم السنَّة ويحتاط لها، ويعمل بها. هذا وقد قال رسول الله ﷺ: «فمن رغب عن سنتي فليس مني» كما في الصحيحين(١)، وكان كلامه هذا ﷺ في أمر الزواج وأكل اللحم ونحوهما.

وقد قال أُبَيُّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ: «عليكم بالسبيل والسنَّة؛ فإنه ما من عبد علىٰ السبيل والسنَّة ذكر الله فاقشعر جلده من مخافة الله إلا تحاتَّت عنه خطاياه كما يتحاتُّ الورق اليابس عن الشجرة، وما من عبد علىٰ السبيل والسنَّة ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله إلا لم تمسه النار أبداً، وإنَّ اقتصاداً في سبيل وسنَّة خير من اجتهاد فيما خلاف سبيل وسنَّة، فاحرصوا أن تكون أعمالكم اقتصاداً واجتهاداً علىٰ منهاج الأنبياء وسنَّتهم»(٢).

٢ ـ ردُّ الأحاديث الصحيحة:

ومما يلاحظ من الجفاء رد بعض الأحاديث الصحيحة الثابتة بأدنىٰ حجة من الحجج، كمخالفة العقل أو عدم تمشيها مع الواقع، أو عدم إمكان العمل بها، أو المكابرة في قبول الأحاديث، وتأويل النصوص وحرفها لأجل ذلك، أو رد الأحاديث الصحيحة باعتبار أنها آحاد، ـ وأغلب أحكام الشريعة إنما جاءت من طريق الآحاد ـ، أو دعوىٰ العمل بالقرآن وحده، وترك ما سوىٰ ذلك، وقد قال ﷺ: «لا ألفين أحدكم متكئاً علىٰ أريكته، يأتيه الأمر من أمري، مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: لا ندري؛ ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه»(٣).

---

(١) البخاري، رقم ٥٠٦٣، ومسلم، رقم ١٤٠١.

(٢) أبو نعيم في الحلية: ١/ ٢٥٣، وابن الجوزي في تلبيس إبليس، ص ١٦.

(٣) الترمذي، رقم ٢٨٠٠، وأبو داود، رقم ٤٦٠٥، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، رقم ٣٨٤٩.

وإن زعموا ما زعموا من وجوب وحدة المسلمين على القرآن وحده؛ فإن الله -تعالى- أوجب في القرآن الأخذ عن الرسول ﷺ كل ما أتى به جملة وتفصيلاً فقال -تعالى-: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]. وقد ذكر الله -تعالى- طاعة الرسول ﷺ في القرآن في ثلاث وثلاثين موضعاً، وقد قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»(١).

قال الحميدي: «كنا عند الشافعي -رحمه الله- فأتاه رجل، فسأله في مسألة؟ فقال: قضى فيها رسول الله ﷺ كذا وكذا، فقال رجل للشافعي: ما تقول أنت؟! فقال: سبحان الله! تراني في كنيسة! تراني في بيعة! ترى على وسطي زنَّاراً؟! أقول لك: قضى فيها رسول الله ﷺ وأنت تقول: ما تقول أنت؟!»(٢). وقال مالك: «أكلما جاءنا رجل أجدل من رجل، تركنا ما نزل به جبريل على محمد ﷺ لجدله؟!»(٣).

ويقول -رحمه الله-: «سنَّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر بعده سنناً الأخذُ بها تصديقٌ لكتاب الله -عز وجل- واستكمالٌ لطاعة الله، وقوة على دين الله، من عمل بها مهتد، ومن استنصر بها منصور، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى»(٤).

قال ابن القيم -رحمه الله-: «ومن الأدب معه ألا يُستشكَل قوله، بل تُستشكَل الآراء لقوله، ولا يُعارَض نصه بقياس، بل تُهدَر الأقيسة وتلقى لنصوصه، ولا يُحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولاً، -نعم! هو مجهول، وعن الصواب معزول-، ولا يوقف قبول ما جاء به على موافقة أحد.

---

(١) أبو داود، رقم ٤٦٠٤، صححه الألباني في صحيح أبي داود، رقم ٣٨٤٨.
(٢) سير أعلام النبلاء: ١٠/ ٣٤، وحلية الأولياء: ٩/ ١٠٦.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٨/ ٩٩، وشرف أصحاب الحديث، للخطيب البغدادي، ص ٥.
(٤) شرف أصحاب الحديث، للخطيب البغدادي، ص ٧.

فكان هذا من قلة الأدب معه ﷺ، بل هو عين الجرأة»(١).

دعوا كل قولٍ عند قول محمدٍ فما آمِنٌ في دينه كمخاطر

٣ ـ العدول عن سيرته ﷺ وسنته:

وفي عصر الإعلام يتجلىٰ الجفاء في العدول عن سيرته ﷺ وسنَّته وواقعه وأعماله إلىٰ رموز آخرين من عظماء الشرق والغرب ـ كما يسمون ـ، سواء كانوا في القيادة والسياسة، أو في الفكر والفلسفة، أو في الأدب والأخلاق. والأدهىٰ من ذلك مقارنة أقوال هؤلاء ومقاربتها لأقوال النبي ﷺ وأحواله، وعرضها للعموم والعامة؛ وتلك مصيبة تهوِّن علىٰ العوام التجني علىٰ سيرة المصطفىٰ ﷺ وسنَّته، وتثير الشكوك في أقواله وأعماله التشريعية ﷺ والتي هي محض وحي: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤]. لكن بعض الأذهان لا تتعلق إلا بالواقع المشاهد، واللحظة المعاصرة، فينبهرون بأولئك، وينسون العظمة التي عاشها النبي ﷺ للأحياء وللأموات، للحاضر وللمستقبل، بل للحياة وللموت.

اتطلبون من المختار معجزة يكفيه شعبٌ من الأجداث أحياهُ

وقد سمَّىٰ الله الكفر قبل الإيمان موتاً، والإيمان حياة، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ...﴾ [الأنعام: ١٢٢].

اخوك عيسى دعا مَيْتاً فقام له وانت أحييت أجيالاً من العدم

وأعماله ﷺ ما زالت وستظل قائمة بأعيانها متحدثة بعنوانها عن عظيم وعظمة وحياة، ولا تحتاج إلىٰ دليل وبيان:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

ويلحق بذلك: تقديم أقوالهم علىٰ أقواله ﷺ، وأحوالهم علىٰ أحواله، وأعمالهم علىٰ أعماله، ويا للأسف! من يقوم بمثل تلك الأعمال؟ إنهم رجال العفن وفئة من أهل الصحافة وبعض ساسة الإعلام والتعليم ممن تسوَّدوا بغير

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٤٠٦.

سيادة، وقادوا بغير قيادة!!

٤ ـ نزع هيبة الكلام حين الحديث عن النبي ﷺ :

وفي مجالسنا ومنتدياتنا يلاحظ المتأمل منا جفاءً روحانياً يتضح في نزع هيبة الكلام حين الحديث عن النبي ﷺ وكأنها حديث عابر، أو سيرة شاعر، أو قصة سائر، فلا أدب في الكلام، ولا توقير للحديث، ولا استشعار لهيبة الجلال النبوي، ولا ذوق للأدب النوراني القدسي، فلا مبالاة، ولا اهتمام، ولا توقير، ولا احترام، وقد قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ**﴾ [الحجرات: ٢]. هذا أيها الناس هو الأدب الرباني؛ فأين الأدب الإنساني قبل الأدب الإسلامي؟

كما نهىٰ الله قوماً كانوا ينادونه باسمه: (يا محمد) كما ذكره كثير من المفسرين، فيسلب المنادي الشرف الذي تميز به رسول الله ﷺ وهو النبوة والرسالة، وهذا ليس علىٰ إطلاقه، لكنه أدب فتأمله.

«كان عبد الرحمن بن مهدي إذا قرأ حديث رسول الله ﷺ أمر الحاضرين بالسكوت؛ فلا يتحدث أحد، ولا يُبرىٰ قلم، ولا يتبسم أحد، ولا يقوم أحد قائماً، كأن علىٰ رؤوسهم الطير، أو كأنهم في صلاة؛ فإذا رأىٰ أحداً منهم تبسم أو تحدث لبس نعله وخرج»(١). ولعله بذلك يتأول الآيات الثلاث في أول سورة الحجرات؛ كما تأولها حماد بن زيد بهذا المعنىٰ(٢).

«وكان مالك ـ رحمه الله ـ أشد تعظيماً لحديث رسول الله ﷺ، فكان إذا جلس للفقه جلس كيف كان، وإذا أراد الجلوس للحديث اغتسل وتطيب ولبس ثياباً جدداً وتعمّم وقعد علىٰ منصته بخشوع وخضوع ووقار، ويبخر المجلس من أوله إلىٰ فراغه تعظيماً للحديث»(٣).

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٩/ ٢٠١.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٧/ ٤٦٠.

(٣) انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي: ١/ ١٩٦، والشفا لعياض: ٢/ ٦٠١.

ولذا حرص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ علىٰ تعليم الناس تعظيم النبي ﷺ ميتاً كتعظيمه حياً، وذلك من تمام وفائه للنبي ﷺ. روىٰ البخاري ـ رحمه الله ـ عن السائب بن يزيد، قال: «كنت نائماً في المسجد فحصبني رجل، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب فقال: اذهب فائتني بهذين فجئته بهما، قال: من أنتما؟ ـ أو: من أين أنتما؟ ـ قالا: من أهل الطائف، قال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ!!»(١).

٥ ـ هجر أهل السنة أو اغتيابهم والاستهزاء بهم:

ويلحق بالجفاء: جفاء القلوب والأعمال تجاه من خدموا السنة، ويتمثل ذلك في هجر أهل السنة والأثر العاملين بها، أو اغتيابهم ولمزهم والاستهزاء بهم واستنقاص أقدارهم، وانتقادهم وعيبهم علىٰ التزامهم بالسنن ظاهراً وباطناً.

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

وتصور حالة الغربة والغرباء تجد قلتهم في هذا الزمن وغيره، وقد سبقنا إلىٰ تصويرها ابن القيم حين قال:

وأي اغتراب فوق غربتنا التي ... لها أضحت الأعداء فينا تَحَكَّم

ولكننا سبي العدو؛ فهل تُرى ... نعود إلى أوطاننا ونسلم

وفي وصف أهل السنة والأثر يقول ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتىٰ يأتي أمر الله وهم كذلك»(٢).

وعيرني الواشون أني أحبها ... وتلك شكاةٌ ظاهر عنك عارها

وهذا أحد السلف وهو الجنيد بن محمد يقول: «الطرق إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ كلها مسدودة علىٰ الخلق إلا من اقتفىٰ أثر الرسول ﷺ واتبع سنته ولزم طريقته؛ فإن

---

(١) البخاري، رقم ٤٧٠.

(٢) البخاري، رقم ٣٦٤١، ومسلم، رقم ١٠٣٧.

طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه. كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١]»[1].

أما من لم يدرك السنة والعمل بها فلا همّ له إلا الكلام والملام.

أقلّوا عليهم لا أبا لأبيكم من اللوم أو سدّوا المكان الذي سدّوا

وفي الحقيقة أن من تكلم فيهم لا يضر إلا نفسه:

كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهنها فلم يُضِرْها، وأوهى قرنَه الوعلُ

ولعل هذا أيضاً مما ينشر السنن بين الناس:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت؛ أتاح لها لسان حسود

٦ ـ هجر السنن المكانية:

ومن صور الجفاء الممض الذي طبقه الكثيرون ـ من غير استشعار للجفاء ـ: هجر السنن المكانية، وشواهد هذا الجفاء في حياتنا كثيرة؛ فترىٰ من الناس من يحجِ كل عام ويعتمر في السنة أكثر من مرة، ومع ذلك تمر عليه سنوات كثيرة لم يعرِج فيها علىٰ المدينة النبوية إلا أقل من أصابع اليد الواحدة، وقد يعتب بعضهم علىٰ أهل الآفاق أو الوافدين الذين لا يقدمون الديار المقدسة في العمر إلا مرة، ويأتون المدينة فيصلون فيها ويغتنمون أوقاتهم، وترىٰ من أولئك الآفاقيين حرصاً لا تكاد تجد بعضه عند سكان الجزيرة، بل يعتصر الإنسان أسىٰ علىٰ أننا في هذه الديار وقلَّ مَنْ يهتم بالزيارة، وقد يزورها لكن علىٰ عجل وخوف من فوات مصالح يظنها كذلك، وإن زارها فلا اهتمام بالسنن والشعائر، وهذا لعله من النسيان والانشغال بغير السنن والبعد عن قراءة السيرة النبوية؛ فإن الإنسان بحمد الله يجد من الأمن والأنس والطمأنينة القلبية في المدينة النبوية ما لا يجده في غيرها إلا مكة:

---

(١) أبو نعيم في الحلية: ١٠/ ٢٥٧، وابن الجوزي في تلبيس إبليس، ص ١٩.

ويا حـــبــــهـــا زدنـي جـــوىً كل لـيـلـة ... ويا سلوة الأيام مـــوعـــدكِ الـحـــشـــرُ
وصلـتكِ حـــتى قـــيـل: لا يعـــرف القِلى ... وزرتكِ حـــتـى قـــيل: ليس له صـــبـــرُ
وإنـي لتـــعـــروني لـذكـــراكِ هـزة ... كـمـــا انـتـــفض الـعـــصـــفـورُ بلّله الـقَطرُ
هـل الـوجـــــد إلا أن قـلـبـي لـو دنـا ... من الجـمـــر قـيـد الـرمح لاحـتـرق الجـمـرُ

«وجديرٌ لِمَواطن عُمِّرت بالوحي والتنزيل، وتردَّد بها جبريل وميكائيل، وعرجت منها الملائكة والروح، وضجت عرصاتها بالتقديس والتسبيح، واشتملت تربتها على جسد سيد البشر ﷺ، وانتشر عنها من دين الله وسنَّة رسول الله ﷺ مدارس آيات، ومساجد، وصلوات، ومشاهد الفضائل والخيرات، ومعاهد البراهين والمعجزات، ومواقف سيد المرسلين ﷺ، ومتبوَّأ خاتم النبيين ﷺ»(١) أن يُعتنى بها، وأن تحل في القلوب وتخالط بشاشتها، وأن يكون في زيارتها ما يحدو إلى اتباع السنَّة وتعظيم نبي الأمة ﷺ.

* ومن السنن في المدينة: الصلاة في المسجد النبوي، وهي صلاة مضاعفة، كما قال ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»(٢).

* ومن السنن المكانية: الصلاة في مسجد قباء، وقد قال النبي ﷺ فيما رواه أُسيد بن ظُهير: «صلاة في مسجد قباء كعمرة»(٣).

وعن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص قالت: سمعت أبي يقول: «لأن أصلي في مسجد قباء ركعتين أحبُّ إليَّ من أن آتي بيت المقدس مرتين، ولو يعلمون ما

(١) الشفا لعياض: ٢/ ٦٢٢.
(٢) البخاري، رقم ١١٩، ومسلم، رقم ١٣٩٤.
(٣) الترمذي، رقم ٣٢٣، وابن ماجه، رقم ١٤١٤، وصححه الألباني في صحيح الترمذي، رقم ٢٦٧.

في قباء لضربوا إليه أكباد الإبل». قال الحافظ في الفتح: «إسناده صحيح»[(١)].

وهو محمول على إرادة سعد - رضي الله عنه - الترغيب في زيارته، لا على جواز شد الرحال إليه؛ فقد قال ﷺ: «لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، ومسجد الأقصى»[(٢)]. «فيستحب السفر إلى مسجده»[(٣)].

* ومما نسي في المدينة من السنن المكانية: الصلاة في الروضة الشريفة، وهي من رياض الجنة التي ينبغي التنعم فيها والاعتناء بها؛ إذ هي من أماكن نزول الرحمة وحصول السعادة وأسبابها[(٤)]. وقد بين ذلك ﷺ بقوله: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي»[(٥)].

قال ابن حجر - بعد أن ذكر الأقوال في المراد بمعنى الروضة -: «والخبر مسوق لمزيد شرف تلك البقعة على غيرها»[(٦)].

ولكن المحروم من حُرم الخير وصدف عن طريقه:

يا راحلين إلى البيت العتيق لقد ... سرتم جسوماً وسرنا نحن أرواحاً
إنا أقمنا على عذر وعن قدر ... ومن أقام على عذر فقد راحا

* ويلحق بزيارة المدينة النبوية زيارة قبر النبي ﷺ والسلام عليه وعلى صاحبيه، رضي الله عنهما. وهل يُسلِّم على النبي ﷺ كلما دخل المسجد[(٧)] ممن

---

(١) لمزيد من البحث في هذا الحديث وأسانيده وطرقه. انظر: أخبار المدينة النبوية لابن شبة، تعليق الشيخ عبد الله الدويش، ١/ ٤٣ - ٤٥. وانظر الأحاديث الواردة في فضائل المدينة جمعاً ودراسة/ صالح الرفاعي - رسالة دكتوراه، طبعة مجمع الملك فهد، ص ٥٣٤، ٥٣٦. وانظر تعليق ابن باز على فتح الباري: ٣/ ٨٩ - ٨٥.
(٢) البخاري، رقم ١١٨٩، ومسلم، رقم ١٣٩٧، واللفظ له.
(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١/ ٢٣٤.
(٤) انظر فتح الباري: ٤/ ١٢٥، مدارج السالكين لابن القيم، ٣/ ٢٦٠.
(٥) البخاري، رقم ١١٩٦، ومسلم، رقم ١٣٩١، وانظر فتح الباري: ٣/ ٩٠.
(٦) فتح الباري، ١١/ ٥٨٠.
(٧) وهو غير الدعاء عند دخول المسجد.

كان من أهل الآفاق؟ مسألة فيها خلاف(١)؛ لكن شرف الزيارة والسلام والصلاة مما أجمع عليها المسلمون، وأن يزور قبور البقيع من الصحابة، وقبور الشهداء، وقبر حمزة - رضي الله عنهم -؛ لأن النبي ﷺ كان يزورهم ويدعو لهم، ولعموم الأحاديث في زيارة القبور(٢)؛ وأن يدعو لهم، وأن يستشعر فضائلهم، ومناقبهم، وجهادهم، وأن يلين قلبه ويتذكر الآخرة لعل الله أن ينصر به دينه كما نصره بهم، وأن يجمعه بهم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، والله المستعان(٣).

والسنن المكانية لا تختص بالمدينة فقط، بل في غيرها، مثل مكة كالصلاة داخل «الحِجْر» لأنه من الكعبة، أو خلف المقام، أو ما يتعلق بالبقعة في غيرهما من الأرض مما هو مشروعٌ التعبد فيه مكاناً.

٧ - عدم معرفة خصائص النبي ﷺ ومعجزاته:

ومن الجفاء مع النبي ﷺ علمياً وتربوياً عدم معرفة الخصائص والمعجزات التي خص الله بها نبيه محمداً ﷺ، وهذا مما ينبغي أن يتفطن له المتعلمون قبل غيرهم، وينبغي مراعاة الفروق بين الخصائص والشمائل والمعجزات

---

(١) قال مالك - رحمه الله -: «وليس يلزم من دخل المسجد وخرج من أهل المدينة الوقوف بالقبر، وإنما ذلك للغرباء...»، قال أبو الوليد الباجي: ففرق بين أهل المدينة والغرباء؛ لأن الغرباء قصدوا لذلك، وأهل المدينة مقيمون بها لم يقصدوها من أجل القبر والتسليم - وهذا على أن السفر ليس لأجله أصلاً - وهنا يلاحظ أن الزيارة في أوقات الزحام ليست بلازمة. الفتاوى (١/ ٢٣١)، وانظر التحقيق والإيضاح لابن باز.

(٢) التحقيق والإيضاح لابن باز، الجزء الخامس، قسم الحج والعمرة: ١/ ٢٩٧.

(٣) ومما ينبغي ذكره قول شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن زيارة القبور على وجهين: زيارة شرعية، وزيارة بدعية؛ فالزيارة الشرعية يقصد بها السلام عليهم والدعاء لهم، كما يقصد الصلاة على أحدهم إذا مات فيصلى عليه صلاة الجنازة، فهذه الزيارة الشرعية.
والثاني: أن يزورها كزيارة المشركين وأهل البدع لدعاء الموتى وطلب الحاجات منهم، أو لاعتقاده أن الدعاء عند قبر أحدهم أفضل من الدعاء في المساجد والبيوت، أو أن الإقسام بهم على الله وسؤاله - سبحانه - بهم أمر مشروع يقتضي إجابة الدعاء، فمثل هذه الزيارة بدعة منهي عنها». الفتاوى: ١/ ٢٣٦.

والكرامات، وأن الكرامات هي ما يبارك الله في أصله مثل تكثير الطعام والاستسقاء، أو ما يُحدثه الله -عز وجل- من الخوارق التي يعجز عنها الإنس والجن؛ فيهيئها الله لعباده من غير قاعدة سابقة[(١)]، ولا تكون الكرامات إلا لمن استقام ظاهراً وباطناً على الطريق المستقيم، وقد تجري لغيرهم لكن ليس على الدوام. أما المعجزات فلا تكون إلا للأنبياء للاستدلال بها والتحدي، وهي على الدوام على بابها في التعجيز، وليست من جنس الخوارق[(٢)]. وأما الخصائص فهي الأحكام التي خص الله بها نبيه ﷺ مثل الجمع بين أكثر من أربع زوجات، والقتال في الحرم المكي. والشمائل هي: الأخلاق الكريمة التي كانت محور حياة النبي ﷺ كالعفو والصفح والرحمة ولين الجانب.

٨ ـ الابتداع في الدين:

ويزدادُ الجفاءُ سوءاً حين يبتعد المرء عن الجادة والشرع إلى سلوك الابتداع في الدين ومشابهة حالة المخلِّطين من تعظيم مشايخ الطرق ورفعهم فوق منزلة الأنبياء بما معهم من الأحوال الشيطانية والخوارق الوهمية، أو الغلو في الأولياء الذين يُظَن أنهم كذلك، وإطراؤهم في حياتهم وتقديسهم بعد مماتهم، ودعاؤهم من دون الله، والنذر لهم وذبح القرابين باسمِهم، والطواف حول قبورهم أو البناء عليها، وهذا هو الشرك الذي بُعِثَ النبي ﷺ لإزالته وهدمه وإقامة صرح التوحيد مكانه في الأرض وفي القلوب، فأقام الله دينه، ونصر عبده، وأعز جنده المؤمنين، وأقرَّ الله أعينهم بإزالة علائم الشرك وأوثان الجاهلية حين كان النبي ﷺ يطعنها ويحطمها بيده وهو يقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩][(٣)].

---

(١) انظر مجموع الفتاوى: ١١/ ٣١١، وشرح العقيدة الطحاوية، تحقيق التركي والأرناؤوط: ٢/ ٧٤٦.

(٢) انظر الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، لابن تيمية، ص ٥٩ فما بعدها.

(٣) البخاري، رقم ٤٢٨٧، مسلم، رقم ١٧٨١.

وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

ولا يخفى على عاقل مهتد عقله بنور الشريعة أن الطواف حول القبور والأضرحة، والعكوف عندها وسؤال الموتى قضاء الحاجات، وشفاء المرضى، أو سؤال الله بهم، أو بجاههم مما أُحدِثَ في الدين، وأن الطواف الشرعي لا يكون إلا حول الكعبة، وأن النفع والضر والشفاعة لله وحده، كما في القرآن والسنَّة والإجماع، وقد أبلغ ﷺ الوحي الذي نزل عليه من السماء ـ كما ورد في سورة الجن ـ مستجيباً لما أُمِرَ به: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلاَّ بَلاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ ...﴾ [الجن: ٢١ - ٢٣]؛ وهو من هو ﷺ؛ فكيف بغيره؟!! وهذا هو الفرقان الذي يتميز به أهل الإيمان عن غيرهم، فكل من صرف تعظيماً للمخلوقين فإنما ينتقص من عِظَمِ الخالق تبارك وتعالى، وكل تذلل للمخلوقين فهو ضعف وجهل، وهذا باب من الذل لا يخفى.

٩ ـ الغلو في النبي ﷺ:

ومن الجفاء ـ الذي يؤذي النبي ﷺ ويخالف هديه ودعوته، بل يخالف الأصل الذي أرسله الله به وهو التوحيد ـ: الغلو في النبي ﷺ ورفعه فوق منزلة النبوة وإشراكه في علم الغيب، أو سؤاله من دون الله، أو الإقسام به، وقد خاف النبي ﷺ وقوع ذلك فقال ـ في مرض موته ـ: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، ولكن قولوا: عبد الله ورسوله»(١).

ومعلوم أن النصارى تعبد مع الله عيسى ويسمونه: (الابن)، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. ودعاء النبي ﷺ من دون الله عبادة له، والعبادة لا تصرف إلا لله وحده، وكذلك حذر النبي ﷺ أن يُتخذ قبره عيداً ومزاراً؛ حيث قال:

(١) البخاري، رقم ٣٤٤٥.

«لا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليّ؛ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»(١).

ويبلغ الحد في التنفير من الغلو في ذاته ﷺ أن لعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، فقال ﷺ: «لعن الله اليهود والنصارىٰ؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»(٢)، يُحذِّر ما صنعوا.

ولما همَّت طائفة من الناس بالغلو فيه فقالوا: أنت سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا. قال لهم ﷺ: «قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستهوينكم الشيطان»(٣).

ومن الغلو فيه ﷺ: الحلف والإقسام به؛ فإنه من التعظيم الذي لا يصرف إلا لله وحده، وقد قال ﷺ: «من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت»(٤).

ومجموع الأحاديث في هذا الباب ميزان عدل لا ينبغي الزيادة عليها ولا النقص منها، وكل متجرد للحق يجد بغيته في تلك النصوص، والله وحده هو الموفق.

١٠ ـ ترك الصلاة عليه ﷺ:

ومن الجفاء أيضاً ترك الصلاة عليه ﷺ لفظاً أو خطّاً ـ إذا مرّ ذكره ـ وهذا قد يحدث في بعض مجالسنا؛ فلا تسمع مصلياً عليه ﷺ فضلاً عن أن تسمع مذكِّراً بالصلاة والسلام عليه، وهذا علىٰ حد سواء في المجتمعات والأفراد. وأي بخل أقسىٰ من هذا البخل؟ وبهذا الجفاء يقع الإنسان في أمورٍ لا تنفعه في آخرته ولا في دنياه، ومنها:

١ ـ دعاء النبي ﷺ بقوله: «رَغِمَ أنفُ رجل ذُكِرْتُ عنده فلم يصلِّ عليَّ»(٥).

---

(١) أبو داود بإسناد صحيح، رقم ٢٠٤٢، وصححه الألباني في غاية المرام ١٢٥.

(٢) البخاري، رقم ١٣٣٠، مسلم، رقم ٥٢٩.

(٣) صححه الألباني في غاية المرام ١٢٧، وانظر تخريجه فيه.

(٤) البخاري، رقم ٢٦٧٩، ومسلم، رقم ١٦٤٦.

(٥) رواه الترمذي، رقم ٣٥٤٥، وأحمد ٢/ ٢٥٤، وصححه الألباني في الإرواء: ٦.

٢ ـ إدراك صفة البُخل التي أطلقها النبي ﷺ، حين قال: «البخيل: من ذُكِرت عنده فلم يصلِّ عليَّ»(١).

٣ ـ فوات الصلاة المضاعفة من الله عليه: إذا لم يصلِّ على النبي ﷺ وآله وسلم؛ فقد قال ﷺ: «من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً»(٢).

٤ ـ ومنها فوات الصلاة من الله والملائكة لتركه الذكر النبوي، قال ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

[الأحزاب: ٤٣].

(فهذه الصلاة منه ـ تبارك وتعالى ـ ومن الملائكة، إنما هي سبب الإخراج لهم من الظلمات إلى النور، وإذا حصلت لهم الصلاة من الله ـ تبارك وتعالى ـ وملائكته وأُخرجوا من الظلمات إلى النور، فأي خير لم يحصل لهم؟!! وأي شر لم يندفع عنهم؟! فيا حسرة الغافلين عن ربهم! ماذا حُرموا من خيره وفضله؟ وبالله التوفيق)(٣). كما أن في تركها وحشة القلب وفزعه لبعده عن الذكر؛ إذ كلما أكثر المرء من الذكر ازدادت الطمأنينة في قلبه، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

٥ ـ فوات أثر الصلاة على النبي ﷺ على من لم يصلِّ عليه، كتفريج الهموم وغفران الذنوب.

وفي حكم الصلاة على النبي ﷺ عند ذكره خلاف ليس هذا مكان بسطه(٤)، لكن من كان أحب إليك من نفسك وأهلك ومالك فكيف أنت عند ذكره؟ أو

---

(١) الترمذي، رقم ٣٥٤٦، وأحمد: ١/ ٢٠١، وصححه الألباني في الإرواء: ٥.

(٢) مسلم، رقم ٢٨٤.

(٣) صحيح الوابل الصيب، ابن القيم، ص ١٣٤، تحقيق سليم الهلالي.

(٤) انظر الخلاف في هذه المسألة في (جلاء الأفهام)، لابن القيم ص٥٤٠ ـ ٥٥٨، تحقيق مشهور بن حسن سلمان.

كيف أنت في الثناء عليه؟ والدعاء له؟

خيالك في ذهني وذكرك في فمي ومثواك في قلبي؛ فأين تغيب؟

ورحم الله الشافعي؛ إذ يقول: «يُكرَه للرجل أن يقول: قال رسول الله، ولكن يقول: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ تعظيماً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»(١).

١١ ـ عدم معرفة قدر الصحابة:

ومن الجفاء ما يتقمصه الكثيرون على اختلاف في النيات، وتنوع في صور الجفاء يجمعها عدم معرفة قدر الصحابة ومنازلهم وفضائلهم وهم الجيل الأغر، حظ النبي ﷺ من الأجيال، وهو حظهم من الأنبياء، لهم شرف الصحبة كما لهم نور الرؤية، ولذا تزخر كتب السنة المطهرة بأحاديث الفضائل والتعديل للأفراد وللعموم، للمهاجرين والأنصار، وما حظنا منها إلا الفخر بذلك الجيل الأشم، وفي آيات التنزيل الثناء والتفضيل، ومنها قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [التوبة: ١٠٠]، ﴿**لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ**﴾ [التوبة: ١١٧]، ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [الفتح: ١٠]، وفي آية أخرى يقول ـ تعالى ـ: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وكيف بمن ترك ماله وولده بل خاطر بنفسه ليهاجر الهجرتين إلى الحبشة أو يهاجر إلى المدينة مخلِّفاً حياة العز الظاهر في مكة؟ أَيُشكُّ بعدُ في إيمانه وصدقه وإخلاصه؟

---

(١) أخرجه الهروي في ذم الكلام، ص٢٥٥.

وقد ألمح الله - تعالىٰ - إلىٰ من خالف جماعة المسلمين وشذ عنهم وترك ما جاء به الرسول ﷺ أو أشار به أو ألمح إليه أو ما أقامه ﷺ مقامه فقال - تعالىٰ -: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ [النساء: ١١٥].

وأما ما وقع بينهم من الخلاف فهم بشر ليسوا بمعصومين، ومَن نحن حتىٰ نصب أنفسنا حكاماً ومعدِّلين لهم؛ فلتسلم ألسنتنا كما تسلم قلوبنا، وهذا هو المذهب الأسلم والأحكم، ثم إن «القدْر الذي ينكر من فعلهم قليل نزرٌ مغمورٌ في جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح، ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة، وما منَّ الله عليهم به من الفضائل، علم يقيناً أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها علىٰ الله»(١).

كما ينبغي أن يعلم أن جمهور الصحابة، وجمهور أفاضلهم لم يدخلوا في فتنة، وقد ثبت بإسناد قال عنه ابن تيمية: «إنه من أصح إسناد علىٰ وجه الأرض»، عن محمد بن سيرين قال: «هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ عشرة آلاف، فما حضرها منهم مائة، بل لم يبلغوا ثلاثين»(٢). ولعل حسنة من أحدهم تعدل آلاف الحسنات من غيرهم، كما في النص الآتي قريباً، ولعل العاقل البصير المتجرد للحق - وللحق وحده - أن يدرك أن الله - عز وجل - لا يختار لصحبة نبيه وملازمته من كان مفسداً للدين مُبغضاً للنبي ﷺ.

وقد سُئل النصارىٰ فقيل لهم: مَنْ أفضلُ أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب عيسىٰ. وسئلت طائفة ممن تنتسب للمسلمين: مَنْ شرُّ أهل ملتكم؟ فقالوا:

(١) العقيدة الواسطية لابن تيمية، ص ٢٠١.
(٢) منهاج السنة: ٦/ ٢٣٦.

أصحاب محمد ﷺ!! وطائفتان إحداهما لمزت مريم - عليها السلام - بالزنا، والأخرى لمزت عائشة - رضي الله عنها وأرضاها - بالزنا؛ فتأمل رحمك الله كيف يجتمع الهوى والضلال في تلك الطائفتين!! وقد قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي؛ فإن أحدكم لو أنفق مثل أُحُدٍ ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه»(١).

ولك أن تنظر في الذب عن الصحابة حينما دخل عائذ بن عمرو على عبيد الله بن زياد - كما روى مسلم - فقال: «إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن شر الرعاء الحُطَمة؛ فإياك أن تكون منهم»، فقال: اجلس فإنما أنت من نخالة أصحاب محمد ﷺ. قال: وهل كان لهم أو فيهم نخالة، إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم»(٢). وصدق - رضي الله عنه وأرضاه -:

أجد الملامة في هواك لذيذة حباً لذكرك فليلمني اللوَّمُ

١٢ - الحساسية المفرطة حيال كل ما يتصل بتعظيم النبي ﷺ:

ويأتي في النهاية ما قد يكون السبب في التزام الجفاء والتقنع به وهو الحساسية المفرطة من بعض المنتسبين إلى السنَّة والجماعة حيال كل ما يتصل بتعظيم النبي ﷺ وتقديره وتعظيم أهل بيته الصالحين، سواء عند ذكره أو ذكرهم أو القصد إلى ذكره أو ذكرهم، خشية التشبه ببعض الطوائف، وهذا قصد في غير محله، وهذا التعظيم للنبي ﷺ لا يُقصد به الخروج عن التعظيم الشرعي الوارد في الكتاب والسنَّة، ولا الاحتفال بالموالد، ولا التواجد عند السماع، أو التلذذ بالمدائح وحدها، وضابط ذلك التعظيم ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، ومعرفة المحب الصادق من غيره في الاتباع، ومن إذا ذكرت له هدي رسول الله ﷺ امتثله، وانتهى عما أحدثه في الدين، ومن إذا ذكرت له السُّنَّة تركها واتبع هواه.

وقد يحتاج هذا الكلام - أعني الحساسية المفرطة - إلى توضيح بالمثال؛ فما

---

(١) البخاري، رقم ٣٦٧٣، ومسلم، رقم ٢٥٤١.

(٢) مسلم، رقم ١٨٣٠.

زلت أذكر أحد أهل العلم ممن له حضور في الساحة الدعوية، وكان كثير الصلاة والسلام على النبي ﷺ في دروسه ومحاضراته وأشعاره، فكان يُنتقد من بعض المتعلمين بسبب ذلك؟! وأين هم من حديث أُبَيٍّ بن كعب - رضي الله عنه -: «أجعل لك صلاتي كلها»[١]، وقد يقول بعضهم: إن الجافي ترى عنده رقة في الدين وضعفاً في اليقين، بخلاف المحب الصادق؛ فإن عنده رقة للدين وقوة في اليقين. وماذا يضير الإنسان إذا كان مقتدياً بالسنة المطهرة أن يُصَنَّف أي تصنيف؟ أيُلام المحب على محبة النبي ﷺ ؟!! أي شرف هذا الشرف؟ وأي عز هذا العز؟

ولئن نطقتُ بحبهم فلي في الصالحين قبلي سلف وقدوة:

لا بد للعاشق من وقفة ما بين سلوان وبين غرام
وعندها ينقل أقدامه إما إلى خلف وإما أمام

وليمتثل القارئ الكريم بهذا العنوان الجميل لحياة المحب الصادق:

ومن عجب أني أحن إليهم وأسأل شوقاً عنهم وهمُ معي
وتطلبهم عيني وهم في سوادها ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي

والزم - رعاك الله - الحقَّ، وإن كنت وحدك؛ فلا بد من أُنْسٍ وإن طال الطريق وكثر قُطّاعه، والله وحده هو الهادي.

---

(١) رواه الترمذي وحسنه، رقم ٢٥٨٧، وأبو نعيم في الحلية: ٨/ ٣٧٧ وقال: غريب، وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم: ١٩٩٩، وفي الصحيحة برقم ٩٥٤.

الأسباب الجالبة لمحبة النبي ﷺ :

١ ـ محبة الله ـ تعالى ـ والأنس بذكره وحمده وشكره على النعم الظاهرة والباطنة والله ـ تعالى ـ له الثناء والحمد الأتمان الأكملان، وقد يعترف المرء بالعجز عن الشكر، وكما قيل: العجز عن الشكرِ شكرٌ، وهذا في غاية العبادة والذل مع المنعم ـ سبحانه ـ، والله ـ تعالى ـ قال في كتابه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وقد هدانا الله ـ عز وجل ـ وجعلنا من خير أمة أخرجت للناس، وهدانا لما اختلف فيه أهل الكتاب، وهدانا لهذا الرسول الأكرم ﷺ، وهو النعمة العظمى والفخر الأسمى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]. وقد جمع الله هذه النعم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٧]، والذكر هو أفضل الأسباب الجالبة لمحبة النبي ﷺ.

كما ينبغي للعبد كثرة سؤال الله ـ تعالى ـ الصدق في المحبة، والدوام والثبات على المتابعة للرسول ﷺ:

أحن بأطراف النهار صبابة ... وفي الليل يدعوني الهوى فأجيب

وأيامنا تفنى وشوقي زائد ... كأن زمان الشوق ليس يغيب

وعلى الإنسان أن يأنس بخلوته ليتفرغ فيها للعبادة ففيها لذة السعادة التي لا تدرك إلا بالخلوات، ولذا قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «رأيت الخلوة أروح لقلبي»(١)، وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «إن في الدنيا جنة من

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١١/٢٢٦.

لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة»، وقال في موضع آخر: «ما يصنع أعدائي بي أنا جنتي في صدري، أنىٰ رحت فهي معي، أنا سجني خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة»[١]. قال ابن القيم: حدثني بعض أقارب شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ قال: كان في بداية أمره يخرج أحياناً إلىٰ الصحراء، يخلو عن الناس، لقوة ما يرد عليه، فتبعتُه يوماً فلمَّا أصحر تنفس الصعداء، ثم جعل يتمثل بقول الشاعر:

وأخرُجُ من بين البيوت لعلَّني ... أحدِّث عنكَ النفسَ بالسرِّ خاليا[٢]

كما أن من علامة محبة الله: ألا تفتقر إلىٰ غيره، ولا تسأل أحداً سواه، كما يقول ذو النون المصري: «قل لمن أظهر حب الله: احذر أن تذل لغير الله، ومن علامة الحب لله ألا يكون له حاجة إلىٰ غير الله»[٣]، وقد أثنىٰ الله علىٰ عباد له فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

نهاري نهارُ الناس حتىٰ إذا بدا ... لي الليلُ هَزَّتني إليك المضاجعُ

أقضي نهاري بالحديث وبالمنىٰ ... ويجمعني والشوق بالليل جامعُ

ومن دلائلها: قراءة كلام الله ـ تعالىٰ ـ وتأمله وتدبره، والخشوع عند آياته، والوقوف عند حدوده، وإقامة حروفه، والفراغ إلىٰ النوافل بعد إقامة الفرائض كما قال ـ تعالىٰ ـ في الحديث القدسي: «من عادىٰ لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددتُ عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن؛ يكره

---

(١) ذكرها عنه ابن القيم في صحيح الوابل الصيب، تحقيق سليم الهلالي، ص ٩٣.
(٢) مدارج السالكين: ٣/ ٦٢.
(٣) حلية الأولياء: ٩/ ٣٧٣.

الموت وأكره مساءته»(١).

وحب الله ليس كلمات تقال، ولا قصصاً تروى، وكذا محبة رسوله ﷺ، كما أنه «لا يكون دعوة باللسان، ولا هياماً بالواجدان، وكفى، بل لا بد أن يصاحب ذلك: الاتباع لرسول الله ﷺ، والسير على هداه، وتحقيق منهجه في الحياة؛ فالمحبة ليست ترانيم «تغنى، ولا قصائد تنشد»، ولا كلمات تقال، ولكنها طاعة لله ورسوله ﷺ، وعمل بمنهج الله الذي يحمله الرسول ﷺ، وأول ما يطالب به المؤمن أن يكون ولاؤه لله ورسوله ﷺ، ومحبته لرسوله ﷺ؛ بحيث تتجلى هذه المحبة في سلوكه وانطلاقاته، والآيات كثيرة تشير إلى هذه المفاهيم، قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢]»(٢).

٢ ـ تقديم محبة النبي ﷺ وأقواله وأوامره على من سواه، وتعظيم ذلك، بدءاً من المحبة القلبية وتمني رؤيته وصحبته، وانتهاءً بالعمل بشريعته ظاهراً وباطناً، عن محبة وشوق، كما قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده، والناس أجمعين»(٣). ويتجلى هذا الحب إذا تعارض مع أحد هذه المحبوبات ما أحبه الله ورسوله ورضيه الله ورسوله ﷺ.

وكذا أخرج البخاري عن عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: «لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك»، فقال له عمر: فإنه الآن والله! لأنت أحب إلي من نفسي. فقال النبي

---

(١) البخاري، رقم ٦٥٠٢.

(٢) دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، الدكتور محمد لقمان الأعظمي، ص ٢٨، ٢٩.

(٣) البخاري، رقم ١٥، ومسلم، رقم ٤٤.

ﷺ: «الآن يا عمر»(١).

ويبلغ التشريف لمن قصد المحبة مبلغه في قول النبي ﷺ: «مِنْ أشد أمتي لي حباً ناس يكونون بعدي، يود أحدهم لو رآني بأهله وماله»(٢).

ومما يجلب حنان القلب إلى النبي ﷺ وتعظيمه تذكُّر ما يأتي:

أ- تذكُّر أحوال الرسول ﷺ في حرصه على أمته، ورأفته ورحمته بهم، وما لاقاه الرسول ﷺ من الأذى والكيد من المشركين في مكة والطائف، ومن اليهود والمنافقين في المدينة. وسأذكر طائفة من المواقف والنصوص، لعل فيها رقة تنبئ عن عظيم وعظمة في الظاهر والباطن.

* قال- تعالى-: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقوله- تعالى-: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

* عن عائشة- رضي الله عنها- زوج النبي ﷺ: أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: «لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بـ(قرن الثعالب) فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله- عز وجل- قد سمع قول قومك لك وما ردُّوا عليك، وقد بعث إليك مَلَكَ الجبال لتأمره بما شئت فيهم. قال: فناداني مَلَكُ الجبال، وسلّم عليَّ، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا مَلَكُ الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك،

---

(١) البخاري، رقم ٣٦٩٤.

(٢) البخاري، رقم ٣٥٨٩، ومسلم، رقم ٢٨٣٢. واللفظ له.

فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»(١).

* قال ربيعة بن عباد الدؤلي - وهو شاهد عيان -: رأيت رسول الله ﷺ بذي المجاز يتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلىٰ الله - عز وجل -، ووراءه رجل أحول تقد وجنتاه وهو يقول: أيها الناس، لا يغرنكم هذا من دينكم ودين آبائكم. قلت: من هو؟ قالوا: أبو لهب!!(٢).

* عن سلمان - رضي الله عنه - قال: قيل له: قد علَّمكم نبيكم ﷺ كل شيء حتىٰ الخراءة، قال: أجل! نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول، وأن نستنجي باليمين، وأن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برجيع أو عظم(٣).

* قال رسول الله ﷺ - يوم بدر عن الأسرىٰ والقتلىٰ -: «لو كان المطعم بن عدي حياً ثم سألني في هؤلاء النتنىٰ لوهبتهم له»(٤)، لأنه كان أجار النبي ﷺ لما رجع من الطائف، وهو الذي أمر بتمزيق الصحيفة التي حاصرت بني هاشم(٥).

* وقد ألبس النبي ﷺ ثوبه عبد الله بن أُبيّ بن سلول، وكفَّنه فيه حين مات؛ لأنه قد كسىٰ العباس بن عبد المطلب يوم بدر وهو أسير عريان؛ فجازاه النبي ﷺ بذلك مع أن ابن أُبيّ كان وكان..(٦).

* يقال عنه (ساحر، شاعر، مجنون، صابئ، يضرب علىٰ عقبه، يخنق بسلا الجزور، تكسر رباعيته، يدمىٰ وجهه، يتهم في بيته، يتهم في عدله

---

(١) البخاري، رقم ٣٢٣١، ومسلم، رقم ١٧٩٥.
(٢) السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري: ١/ ١٩٣.
(٣) مسلم، رقم ٢٦٢.
(٤) البخاري، رقم ٣١٣٩، ٤٠٢٤.
(٥) انظر الفتح: ٧/ ٤١١.
(٦) ابن كثير: ٢/ ٢٠.

وقسمه... ومع ذلك يقول: «يرحم الله أخي موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر»(١).

* عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر إلى وجه النبي ﷺ يستسقي فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب:

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل(٢)

ب ـ تذكُّر الأجر والأثر العاجل في الدنيا والآخرة الوارد في محبة النبي ﷺ والصلاة عليه، ومن ذلك:

* وجود الحياة الطيبة بلذة الإيمان وغاية السعادة، ففي حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقى في النار»(٣).

* أن تمام الإيمان لا يكون إلا بمحبة النبي ﷺ وتعظيمه وتوقيره، كما في الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»(٤).

وأما أصل المحبة الذي يعني الطاعة والانقياد والتسليم فلا شك في فرضيته: **﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾** [النساء: ٦٥]. ولذا فلا يسع أحداً الخروج عن طاعة الرسول ﷺ والعدول عما أمر به، بل يجب الامتثال للأمر

---

(١) البخاري، رقم ٣٤٠٥، ومسلم، رقم ١٠٦٢.
(٢) البخاري، رقم ١٠٠٩.
(٣) البخاري، رقم ١٦، ومسلم، رقم ٤٣.
(٤) البخاري، رقم ١٥، ومسلم، رقم ٤٤.

والنهي وتقديمهما على حظوظ النفس ودوافع الهوى(١).

* أن في محبته ﷺ والصلاة عليه - وهي من ذكر الله - تفريجاً للهموم، وصلاحاً للبال، وغفراناً للذنوب، وتكفيراً للسيئات، قال الله - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢].

وعن أُبيٍّ بن كعب - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: «يا أيها الناس، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه»، قال أُبيٌّ: فقلت: يا رسول الله، إني أكثر من الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: «ما شئت»، قلت: الربع؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك»، قلت: فالنصف؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير»، قلت: فالثلثين؟، قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير»، قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «إذن تكفى همك ويغفر لك ذنبك»(٢).

* أن من أحبه كان أولى الناس به، كما قال ﷺ - لمن أحبه وأعدَّ هذا الحب ليوم القيامة -: «أنت مع من أحببت»(٣).

إذا نحن أدلجنا وأنت أمامنا كفى بالمطايا طِيب ذكراك حادياً

ج - تذكُّر سماحة الإسلام به وبشريعته، كما قال - تعالى -: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

---

(١) فتح الباري، لابن رجب: ١/ ٥٣.

(٢) رواه الترمذي وحسنه، رقم ٢٥٨٧، وأبو نعيم في الحلية: ٨/ ٣٧٧ وقال: غريب، وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم ١٩٩٩، وفي الصحيحة برقم ٩٥٤.

(٣) البخاري، رقم ٦١٦٧، ومسلم، رقم ٦٢٣٩.

وكما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقوله ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة»(١)، وقوله ﷺ لأبي موسىٰ الأشعري ومعاذ بن جبل ـ رضي الله عنهما ـ حينما بعثهما لليمن: «يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا»(٢).

د ـ محبة ما أحبه ﷺ وبُغض ما أبغضه ﷺ في المعاملات والآداب، بل لا يستقيم حب صحيح إلا بتتبع ما أحبه المحبوب والبعد عما أبغضه، كما قال القائل:

أريد وصاله ويريد هَجْري ... فأترك ما أريد لما يريد

وقول الآخر:

ولو قلت لي: متْ متُّ سمعاً وطاعة ... وقلت لداعي الموت أهلاً ومرحباً

وقد روي بهذا المعنىٰ حديث: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تبعاً لما جئت به»(٣).

وفي محكم التنزيل ـ وهو أقوىٰ دليل ـ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

إن هواك الذي بقلبي ... صيرَّني سامعاً مطيعاً
أخذتَ قلبي وغمضَ عيني ... سلبْتَني النومَ والهجوعا
فذر فؤادي وخُذْ رُقادي ... فقال: لا بل هما جميعا

ولهذا يروىٰ عن ذي النون المصري أنهم تكلموا في مسألة المحبة عنده،

---

(١) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة: ٤٩٠، وانظر تخريجه فيه.

(٢) البخاري، رقم ٤٣٤٤، ومسلم، رقم ١٧٣٣.

(٣) جامع العلوم والحكم: ٢/ ٣٩٣، وانظر تخريجه مفصلاً فيه، وقد حسنه النووي وغيره، وضعفه ابن رجب، وهو صحيح المعنىٰ بلا شك، ولهذا أوردته هنا.

فقال: اسكتوا لئلا تسمعها النفوس فتدعيها[(١)].

رضـــوا بـالأمـــاني وابتُلوا بحظوظهم ... وخاضـــوا بحـار الحب دعـوى ومـا ابتلُّوا
فـهم في السـرى لم يبرحـوا من مكـانهم ... ومـا ظعنوا في السـيـر عنه وقـد كلُّوا

ومنه ينبغي للمرء الحرص على تصحيح الأعمال والنيات لله تعالى؛ حتى يستكمل حقيقة الإيمان، وفي هذا المعنى أشار النبي ﷺ بقوله: «من أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»[(٢)].

ألا يا مـحـبَّ المصطفى زد صـبـابةً ... وضـمِّخ لسـان الذكـر منك بطيـبـهِ
ولا تـعـبـأن بالمبطلين فـإنمـا ... عـلامـةُ حبِّ الله حبُّ حـبـيـبـهِ

٣ ـ تولي الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وذكر محاسنهم وفضائلهم والكف عما شجر بينهم، وإنما نحب نحن من أحب الله ورسوله، كما أن حبهم وموالاتهم تقرب إلى حب الله وحب رسوله ﷺ، وتجلب الحب لهما، كما أننا نُحِبُ بحُبِ النبي ﷺ، ونبغض ببغضه، وهذا من الآثار اللازمة لمن كان محباً للنبي ﷺ؛ ولذا لما سمع النبي ﷺ صوتاً لقريب ممن يحبه اهتز لذلك سروراً، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة، فارتاع لذلك، فقال: «اللهم هالة بنت خويلد» فغرتُ... الحديث[(٣)].

وكان إذا ذبح شاة قال: «أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة»[(٤)] قال ابن حجر: «وفي الحديث: أن من أحب شيئاً أحبّ محبوباته، وما يشبهه، وما يتعلق به»[(٥)].

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٠/ ٨١.
(٢) رواه أبو داود، رقم ٤٦٨١، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: ٣٨٠.
(٣) البخاري، رقم ٣٨٢١، ومسلم، رقم ٢٤٣٧.
(٤) البخاري، رقم ٣٨١٨، ومسلم، رقم ٢٤٣٧.
(٥) فتح الباري: ٧/ ١٧٥.

تمر الصبا صفحاً بسكان ذي الغضا ويصدعُ قلبي أن يهبَّ هبوبُها
قريبةُ عهدٍ بالحبيب وإنما هوى كل نفسٍ حيثُ حلَّ حبيبُها

ولست في مقام النائب عن العقل حتى نستدرك هذا الحب، وإنما هو واقع ما أجمله:

أحب بني العوام طراً لحبها ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا

وينبغي على العاقل أن يتأمل حقيقة الحب وأثره ومعناه:

فيا ساكني أكناف طيبة كلكم إلى القلب من أجلِ الحبيبِ حبيبُ

وقد خشي ﷺ ممن يلمز أصحابه أو يلومهم، فقال ﷺ: «لا تسبُّوا أحداً من أصحابي؛ فإن أحدكم لو أنفق مثل أُحُدٍ ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»(١). هذا في عموم الصحابة، وأما في الأنصار، فعن أنس - رضي الله عنه - قال: مرَّ أبو بكر والعباس - رضي الله عنهما - بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون، فقال: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلس النبي ﷺ منا، فدخل على النبي ﷺ فأخبره بذلك، قال: فخرج النبي ﷺ وقد عصب على رأسه حاشية بُرد، قال: فصعد المنبر - ولم يصعده بعد ذلك اليوم - فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أوصيكم بالأنصار؛ فإنهم كرشي وعيبتي(٢)، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم»(٣).

وفي رواية عند البخاري: «وإن الناس سيكثرون ويقلون»(٤). قال ابن حجر في الفتح: «أي أن الأنصار يقلون: وفيه إشارة إلى دخول قبائل العرب والعجم

---

(١) البخاري، رقم ٣٦٧٣، ومسلم، رقم ٢٥٤١.
(٢) أي: بطانتي وخاصتي... يريد أنهم موضع سرِّه وأمانته، قال ابن دريد: هذا من كلامه ﷺ الموجز الذي لم يُسبق إليه، فتح الباري: ٧/ ١٥٣.
(٣) البخاري، رقم ٣٧٩٩، ومسلم، رقم ٢٥١٠.
(٤) البخاري، رقم ٣٨٠١.

في الإسلام وهم أضعاف أضعاف قبيلة الأنصار، فمهما فرض في الأنصار من الكثرة كالتناسل، فرض في كل طائفة من أولئك، فهم أبداً بالنسبة إلىٰ غيرهم قليل، ويحتمل أن يكون ﷺ اطلع علىٰ أنهم يقلّون مطلقاً، فأخبر بذلك، فكان كما أخبر، لأن الموجودين الآن من ذرية علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ممن يتحقق نسبه إليه أضعاف من يوجد من قبيلتي الأوس والخزرج، ممن يتحقق نسبه، وقس علىٰ ذلك، ولا التفات إلىٰ كثرة من يدعي أنه منهم بغير برهان»(١).

بل تبلغ الدعوة إلىٰ حب الأنصار أن جعل رسول الله ﷺ حبهم آية علىٰ الإيمان، وبغضهم آية علىٰ النفاق، فقال فيهم: «لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يُبغضهم إلا منافق، من أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله»(٢).

وفي المهاجرين يقول ـ تعالىٰ ـ في أصدق وصف وأدق تعبير: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

ويجمعهم النص القرآني في موضع آخر: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

ومما يدعو إلى توليهم ويزيد من محبتهم تذكُّر ما يلي:

* محبة النبي ﷺ لهم وثناؤه عليهم إنْ في المجموع وإنْ في الأفراد.

* شرفهم بشرف رؤيتهم ومصاحبتهم لأشرف وأفضل الخلق، اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وأثنىٰ عليهم في القرآن، فهم أفضل الناس، وهم خير القرون

---

(١) فتح الباري لابن حجر: ٧/ ١٥٤.

(٢) البخاري، رقم ٣٧٨٣، ومسلم، رقم ٧٥.

بنص الحبيب ﷺ(١).

* سابقتهم في الإسلام، وتحملهم الأذى، وصبرهم حتى فرج الله لهم.

* ما قدموا لله وللدين وللنبي ﷺ من النفس والمال والولد، وشدهم من عزم الرسول ﷺ وتثبيته.

* نصر بعضهم لبعض وكونهم كالجسد الواحد ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

* حرصهم على نشر الدين وتبليغ سنة النبي ﷺ وتعليم الناس القرآن، وانتشارهم لأجل ذلك في الآفاق.

* كما أنهم أعلم الخلق بدين الله بعد النبي ﷺ وما أجمعوا عليه لا يسع أحداً خلافه.

أين الذين بنار حبِّك أرسلوا ... الأنوار بين محافل العشاقِ
سكبوا الليالي في أنين دموعهم ... وتوضئوا بمدامع الأشواقِ

* * *

كيف انطوت أيامُهم وهم الأُلى ... نشروا الهدى وعَلَوا مكان الفَرقدِ
هجروا الديار فأين أزمع ركبهم ... من يهتدي للقوم أو مَن يقتدي
يا قلب حسبك لن تلمَّ بطيفهم ... إلا على مصباح وجه محمدِ

* * *

قومٌ إذا هيجوا كانوا ضراغمة ... وإن هم قسموا أرضوك بالقسم
كأنما الشرع جزءٌ من نفوسهم ... فإن هم وعدوا استغنوا عن القسم

* * *

---

(١) قال ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» رواه البخاري من حديث ابن مسعود، رقم ٢٦٥٢.

٤ - **إجلال أهل بيت النبي ﷺ وآله إجلالاً يليق بهم**، وإكرام الصالحين منهم وموالاتهم، ومعرفة أقدارهم، وهذا مطلب شرعي قبل أن يكون مقرباً لحب النبي ﷺ، كما قال - تعالىٰ -: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣](١). وروىٰ مسلم في صحيحه قوله ﷺ: «أما بعد، ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدىٰ والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به»، فحث علىٰ كتاب الله ورغَّب فيه ثم قال: «وأهل بيتي، أذكركم الله أهل بيتي، أذكركم الله أهل بيتي، أذكركم الله أهل بيتي»(٢).

وروىٰ البخاري عن ابن عمر عن أبي بكر - رضي الله عنهم - قال: «ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته»(٣).

كما ينبغي مراعاة ما يلي:

* بقاء شرف النسب لهم وتميزهم عن غيرهم لأجل ذلك.

* أنهم كغيرهم فيهم الصالح وفيهم غير ذلك، وأنهم داخلون في قوله ﷺ: «ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»(٤).

* الدعاء لهم في الصلاة والسلام علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم بقوله: وآله.

---

(١) وهذا الاستثناء منقطع حتىٰ لا يكون ذلك أجراً في مقابلة أداء الرسالة، ومعنىٰ الآية: ولكني أذكركم المودة في القربىٰ، وأذكركم قرابتي منكم، قاله البغوي في تفسيره: ٧/ ١٩٢، وابن كثير، ٤/ ١١٤، وابن عاشور في التحرير والتنوير: ١٢/ ٨٣.

(٢) مسلم، رقم ٢٤٠٨، ولا تعني الوصية بهم تقديمهم علىٰ سنة رسول الله ﷺ، بل أوصىٰ بالسنة مع القرآن في أحاديث أخرىٰ كثيرة، ليس هذا مقام ذكرها، وهي المقدَّمة، يتجلىٰ ذلك في قصة أبي بكر رضي الله عنه مع فاطمة رضي الله عنها في شأن ميراث النبي ﷺ.

(٣) البخاري، رقم ٣٧١٣.

(٤) مسلم، رقم ٢٦٩٩.

* تولي الصالحين منهم ومجالستهم والأخذ عنهم والبرّ بهم وتطييب خواطرهم ؛ فإنهم من آثار النبي ﷺ، ومحاولة القرب منهم، ومصاهرتهم تزوجاً أو تزويجاً.

* مناصرتهم والبذل لهم، والذبُّ عنهم، وذكر مناقبهم ومحاسنهم، وهم من حُرموا الصدقة.

* تأكيد مناصحة غير الصالح منهم والشفقة عليه والرحمة به، ودعوته إلىٰ نهج آل البيت الطيبين الطاهرين واستقامتهم علىٰ الشريعة المحمدية، وسلامة صدورهم وألسنتهم علىٰ الصحابة ومن بعدهم.

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ أشد تعظيماً ومحبة لآل البيت لاستشعارهم مكانة أولئك من النبي ﷺ وامتثالاً لوصايا النبي ﷺ. وقد أمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- العباس بن عبد المطلب -رضي الله عنه- عام الرمادة أن يستسقي بالناس فسقوا. وكان عمر -رضي الله عنه- يقول: اللهم إنَّا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعمّ نبينا فأسقنا، قال: فيُسقون(١).

قال ابن حجر: ويستفاد من قصة العباس: استحباب الاستشفاع بأهل الخير والصلاح وأهل بيت النبوة(٢)، ومنه فضل العباس وفضل عمر بتواضعه للعباس ومعرفته بحقه(٣).

ولما دخل عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب -رضي الله عنهم- في حاجة له علىٰ عمر بن عبد العزيز قال له عمر: إذا كانت لك حاجةٌ

---

(١) البخاري، رقم ١٠١٠.
(٢) وغير خاف أن المقصود الاستشفاع بدعائهم لا بذواتهم.
(٣) فتح الباري: ٢/ ٦٣٢، وانظر: مجموع الفتاوي: ١/ ٢٢٥، ٣١٥.

فأرسل إليَّ أو اكتب فإني أستحيي من الله أن يراك على بابي[١].

وعن الشعبي: صلى زيد بن ثابت على جنازة أمه، ثم قُرِّبت له بغلته ليركبها، فجاء ابن عباس فأخذ بركابه، فقال زيد: خلِّ عنه يا ابن عم رسول الله، فقال: هكذا نفعل بالعلماء فقبل زيدٌ يدَ ابن عباس؛ وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ﷺ[٢].

وإليك أسوق هذه القصة، عن أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ، حين ضُرب في محنته وقُيِّد، وبعد أن أقام الحجة على أحمد بن أبي دؤاد أمام الواثق.

«قال الواثق: اقطعوا قيد الشيخ، فلما قُطع، ضَرَبَ بيده إلى القيد ليأخذه، فجاذبه الحداد عليه. فقال الواثق: لم أخذته؟ قال: لأني نويت أن أُوصي أن يجعل في كفني حتى أخاصم به هذا الظالم غداً، وبكى، فبكى الواثق، وبكينا، ثم سأله الواثق أن يجعله في حِل، فقال: لقد جعلتك في حِل وسعة من أول يومٍ، إكراماً لرسول الله ﷺ، لكونك من أهله!!»[٣].

وهذا دعبل الخزاعي يمدح آل البيت فيقول:

مدارسُ آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحي مقفر العَرصاتِ
وقد كان منهم بالحجاز وأهلها ... مغاوير نحَّارون في السنواتِ
إذا فخروا يوماً أتوا بمحمدٍ ... وجبريل والقرآن ذي السوراتِ
ملامك في أهل النبيِّ فإنهم ... أحبايَ ما عاشوا وأهل ثقاتِ
أحب قصي الرحم من أجل حبكم ... وأهجر فيكم أسرتي وبناتي
تخيَّرتهم رشداً لأمري إنهم ... على كل حالٍ خيرة الخيراتِ
فيا ربّ زدني في يقيني بصيرة ... وزد حبهم يا ربّ في حسناتي[٤]

(١، ٢) الشفا: ٢/ ٦٠٨.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١١/ ٣١٥.

(٤) معجم الأدباء: ١١/ ١٠٣، من قصيدة طويلة.

وأقول كما قال الأول :

وتعـــذلني أبناءُ ســـعـــد عليـــهم ومـــا قلت إلا بالذي علمت ســـعـــدُ

٥ ـ تعظيم السنة والآثار والأدلة من الوحيين قولاً وعملاً وعلماً، وهذا ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يقول : «القصد في السنَّة خير من الاجتهاد في البدعة»(١)، وقال أبو عثمان الحيري : «من أمّر السنّة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمّر الهوىٰ علىٰ نفسه نطق بالبدعة»(٢)، وقيل لمالك ـ رحمه الله ـ: لِمَ لَمْ تأخذ عن عمرو بن دينار؟ فقال : أتيته، فوجدته يأخذون عنه قياماً، فأجللت حديث رسول الله ﷺ أن آخذه قائماً(٣).

وقال سهل بن عبد الله : «أصولنا ستة أشياء : التمسك بكتاب الله ـ تعالىٰ ـ، والاقتداء بسنة رسول الله ﷺ، وأكل الحلال، وكف الأذىٰ، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق»(٤).

ومـمَّا يُعينُ على تعظيم السنَّة والأَثَر ومحبتهما تذكُّر ما يلي :

* كونها تدعو إلىٰ العمل بها : فالعمل طوع المحبة الصادقة، كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ [آل عمران : ٣١]. ولذا قُسِّمَ المحبُّون إلىٰ أقسام ثلاثة : منهم من يريد من المحبوب، ومنهم من يريد المحبوب، ومنهم من يريد مراد المحبوب، مع إرادته للمحبوب، وهذا أعلىٰ أقسام المحبين(٥).

تعـــصي الإلـه وأنت تـظهـــر حُـبّـَـــه هذا لـعـــمـــري في الـقـــيـــاس شنيع
لو كـــان حُـبُّـك صـــادقـــاً لأطعـــتـــه إن المحـــبَّ لمـــن يُـــحـــبُّ مـــطـــيـــعُ

(١) ذكره ابن الجوزي في تلبيس إبليس مسنداً موقوفاً، ص ١٥ .
(٢) حلية الأولياء : ١٠/ ٢٤٤ .
(٣) سير أعلام النبلاء : ٨/ ٦٧ .
(٤) حلية الأولياء : ١٠/ ١٩٠، وشذرات الذهب : ٢/ ١٨٣ .
(٥) روضة المحبين لابن القيم، ص ٢٧٣، تحقيق السيد الجميلي .

* كونها شريعة واجبة، كما قال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديِّين من بعدي عضُّوا عليها بالنواجذ»(١).

* كونها تشرِّف من انتسب إليها بمجموع الأحاديث الدالة على السنَّة وعلى الجماعة:

لما انتسبت إليك صرتُ معظَّماً وعلوتُ قدراً دون من لم ينسبِ

* كونها الميزان العدل الذي يتميَّزُ به المتبع من غيره، وهي القاعدة للعقائد والأخلاق والمعاملات والشريعة، كما أنها الشريعة الوسط كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

* كونها الحق الذي يبقىٰ إلىٰ يوم القيامة، كما قال النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم حتىٰ يأتي أمر الله وهم كذلك»(٢).

* كونها الموافقة للفطرة المستقيمة والصالحة لكل زمان ومكان، كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠].

٦ ـ **إجلال العاملين بالسنة وتقديرهم وتوقيرهم**، وخاصة العلماء منهم، فهم الشامة في جبين الأمة، وهم النور الذي يمشي بين الناس، كما هم الأمنة والأمناء علىٰ ميراث النبوة.

ويزداد حقهم لكونهم يُحيُون السنن ويجدِّدون ما اندرس من معالم الدين، وكونهم أعلم الناس وأقربهم بالنبي ﷺ قولاً وفعلاً ووصفاً ظاهراً وباطناً(٣)،

(١) أبو داود، رقم ٤٦٠٧، والترمذي، رقم ٢٨١٥، وابن ماجه، رقم ٤٣، ٤٤، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: ٣٤.
(٢) البخاري، رقم ٣١١٦، ومسلم، رقم ١٩٢٠.
(٣) انظر: مجموع الفتاوىٰ، ابن تيمية، ١٥٧١.

كما أنهم «أحبوا أصحابه ووالَوهم وأخذوا عنهم الحديث النبوي الشريف علماً وعملاً فقهاً وسلوكاً. فهم الذين يرفعون شعار القرآن والسنة النبوية والإجماع، فيتمسكون بجماعتهم ويلمُّون شملها، ويحافظون على ائتلافها، وينضوون تحت رايتها بعيدين عن رايات وشعارات الفرق الضالة من أهل الشذوذ والتَفَرُّق والأهواء والاختلاف»(١).

ولهذا قال سفيان بن عيينة: «لا تجد أحداً من أهل الحديث إلا وفي وجهه نضرة؛ لدعوة النبي ﷺ»، وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ: «إذا رأيت رجلاً من أصحاب الحديث، فكأني رأيت رجلاً من أصحاب النبي ﷺ، جزاهم الله خيراً، حفظوا فلهم علينا الفضل لأنهم حفظوا لنا»(٢).

ولا ينبغي العدول عن أعلام الإسلام إلى رموز الضلالة في الأدب من الكتَّاب المعاصرين أو الفلاسفة أو الثوّار أو الزعماء هنا أو هناك، بل ينبغي الذبُّ عن علماء الإسلام والالتفاف حولهم وحبهم ونصحهم، وتكثير سوادهم والثقة بهم، وحضور مجالسهم؛ فعندهم الميراث الصحيح ميراث الأنبياء فتأمَّل!!

العلم ميراثُ النبي كما أتى   في النص والعلماءُ هم وُرَّاثُهُ
ما خلّف المختار غيرَ حديثه   فينا فذاك متاعه وأثَاثُه

٧ ـ الإكثارُ من قراءة السيرة النبوية والمطالعة فيها والاستفادة منها وتذكر أحوال الرسول ﷺ وأقواله وأعماله وجهاده وتكوينه المجتمع الإسلامي من غير أن يحد بقطر سواء أكان مكة أم المدينة أم الطائف أم الحبشة أم اليمن أم نجد أم غيرها من البلاد، ونشره الشريعة من غير أن تخص بوقت أو جنس. بل ينبغي أكثر من ذلك ـ وليس بكثير ـ على المرء أن يجمع غيره معه عند قراءة السيرة سواءً من أهل بيته أو أصحابه أو دروسه ومحاضراته، وينبغي تعليم القاصي والداني

(١) أهل السنة والجماعة، معالم الانطلاقة الكبرى، محمد عبد الهادي المصري، ص ٧٨.
(٢) سير أعلام النبلاء: ١٠/ ٦٠، وحلية الأولياء: ٩/ ١٠٩.

تلك السيرة العطرة ففيها الغناء وفيها المتعة، وكذلك الإكثار من قراءة سيرة الصحابة - رضي الله عنهم - فإنها إنما تحكي حياتهم للدين وللرسول الأعظم ﷺ، وليحرص المرء على أن يكون له وقفات يومية في قراءة سيرة النبي ﷺ وسير الصحابة - رضي الله عنهم - وبذلهم الغالي والنفيس؛ لعل الله أن يقيم في قلبه ما قام في قلوبهم ويكفي شرفاً أنك تحيا حياة القوم.

قال شقيق البلخي: قيل لابن المبارك: إذا أنت صليت، لِمَ لا تجلس معنا؟ قال: أجلس مع الصحابة والتابعين، أنظر في كتبهم وآثارهم، فما أصنع معكم؟ أنتم تغتابون الناس(١).

لنا جلساء ما نملُّ حديثهم ألبَّاءُ مأمونون غيباً ومشهداً
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى وحلماً وتاديباً ورأياً مسدّداً

ومن الكتب التي ينبغي المطالعة فيها وقراءتها، (السيرة النبوية الصحيحة) لأكرم ضياء العمري وهو كتاب قمة في التوثيق، و(هذا الحبيب ﷺ يا محب) لأبي بكر الجزائري، و(الرحيق المختوم) للمباركفوري، و(مختصر سيرة الرسول ﷺ) للشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله -، و(تهذيب سيرة الرسول ﷺ) لابن هشام، تهذيب عبد السلام هارون.. وغيرها كثير لمن أراد المزيد(٢). كما أوصي طلبة العلم بكتاب (الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ) للقاضي عياض، قراءة، ومطالعة، ومدارسة، ومناقشة.

٨ - الذبُّ عن النبي ﷺ والتصدي للمغرضين والمنافقين والمنهزمين والمستشرقين والمستغربين الذين يبثُّون سمومهم في وسائل الإعلام المختلفة ووسائل الاتصال المتنوعة إيذاءً للمؤمنين ومحاربة لله ولدينه ولأوليائه، وقد

(١) سير أعلام النبلاء: ٨ / ٣٩٨.

(٢) من الكتب الجديرة بالقراءة كذلك: (السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية) للدكتور مهدي رزق الله، و(السيرة النبوية) لمحمد أبو شهبة، و(فقه السيرة النبوية) لمنير محمد غضبان.

انتدب النبي ﷺ من أصحابه من يكفيه المشركين مع أن الله قد حفظه فقال: «من يردهم عنَّا، وله الجنة»(١).

وقال لأبي قتادة حين كاد النبي ﷺ أن يسقط من الراحلة ثلاث مرات وهو نائم، وكان أبو قتادة يدعَمُه حتى لا يسقط قال له: «حفظك الله بما حفظت نبيه»(٢). وقال لحسان بن ثابت حين كان ينتدب للدفاع عن الرسول الكريم ﷺ: «اهجهم وجبريل معك»(٣). ومن قول حسان رضي الله عنه:

فإن أبي ووالدتي وعرضي لعرض محمد منكم وقاءُ

والدفاع والذب عن الرسول ﷺ وآل بيته، وأصحابه شرفٌ ورفعة ينبغي العمل لأجله، كما أنه واجب على الإنسان العارف التحذير من المتطاولين على السنَّة وأهلها، وكشفهم للناس حتى لا تنفذ شبههم وسمومهم، وتحذير الناس منهم ومن كتاباتهم، والله - عز وجل - مؤيد وحافظ وناصر من نصر الدين والمرسلين، قال - تعالى -: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]. وقال - سبحانه -: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

و «لَمَّا تحدث عن الذين ينصرون الله ورسله بالغيب، عقَّب على هذا بإيضاح معنى نصرهم لله ورسله؛ فهو نصر لمنهجه ودعوته، أما الله - سبحانه - فلا يحتاج منهم إلى نصر إن الله قوي عزيز»(٤). كما أن من لوازم الانتصار للدين، والذود عن حياض الإسلام: الذبُّ عن المسلمين أتباع دينه في كل مكان، من المستضعفين والمجاهدين، والنصرة لهم بالمال والنفس، وبالقلم والسنان، حتى

(١) رواه مسلم، رقم ١٧٨٩.
(٢) رواه مسلم، رقم ٦٨١.
(٣) رواه البخاري، رقم ٣٢١٣، ومسلم، رقم ٢٤٨٦.
(٤) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٤٩٥.

تكتمل فصول النصر والتمكين للمسلمين في هذه الأرض، كما قال ـ تعالىٰ ـ : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾.

[الأنبياء : ١٠٥].

كما أن من علامات المحبة ومقتضياتها تعظيمه ﷺ حياً وميتاً، وتعظيم أمره في النفوس، واستشعار كلامه وجلاله النبوي، والامتثال مع الذل للأمر والنهي ونصره في القلوب وفي الأعمال، كما قال ـ تعالىٰ ـ : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾.

[الفتح : ٨، ٩].

كما أن من علامة المحبة الغيرة علىٰ محارم الله ومحارم رسوله ﷺ.

ألا بقيّةٌ من غيرةٍ تُذْهِبُ زيف الباطل وصولجانه؟! ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ [الرعد : ١٧].

ومودِّع يومَ الفراق بلحظه شرق من العبرات ما يتكلمُ

أسأل الله أن يجعل ما كتبت مما ينفع الناس، ومما خلص فيه لوجهه، وأن ينفع به كاتبه، وقارئه، وأن يجمعنا في مستقر رحمته، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحَسُن أولئك رفيقاً . . . آمين.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

محبة النبي ﷺ وتعظيمه

عبد اللطيف بن محمد الحسن

محبة النبي ﷺ وتعظيمه

عبد اللطيف بن محمد الحسن

لقد حبا الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ نبينا محمداً ﷺ من الخصائص القوية والصفات العلية والأخلاق الرضية ما كان داعيًا لكل مسلم أن يُجلَّه ويعظِّمه بقلبه ولسانه وجوارحه.

وقد كان لأهل السنة والجماعة قدم صدق في العناية بجمع خصائصه، وإبراز فضائله، والإشادة بمحاسنه، فلم يخلُ كتاب من كتب السنة كالصحاح والسنن ونحوها.. من كتب مخصصة في ذكر مآثره، كما أُفردت كتب مستقلة للحديث عنه وعن سيرته(١).

وقد اختار الله ـ عز وجل ـ لنبيه ﷺ اسم (محمد) المشتمل على الحمد والثناء(٢)؛ فهو ﷺ محمود عند الله ـ تعالىٰ ـ، ومحمود عند ملائكته، ومحمود عند إخوانه المرسلين ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، ومحمود عند أهل الأرض كلهم، وإن كفر به بعضهم؛ لأن صفاته محمودة عند كل ذي عقل وإن كابر وجحد؛ فصدق عليه وصفه نفسه ﷺ حين قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، ولا فخر، وأول من يشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفَّع»(٣).

---

(١) من ذلك مثلاً: (شمائل النبي ﷺ)، للترمذي، واختصره الألباني، و(سبل الهدىٰ والرشاد)، للصالحي، و(غاية السول في خصائص الرسول)، لابن الملقن، و(بداية السول في تفضيل الرسول)، للعز بن عبد السلام، وهي رسالة لطيفة حققها الألباني وذكر أن جميع أحاديثها ثابتة، و(الخصائص الكبرىٰ للسيوطي).

(٢) انظر: جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام، لابن القيم الجوزية، ت: مشهور حسن سلمان: ٢٧٧.

(٣) أخرجه مسلم: ٢/ ١٧٨٢، رقم ٢٢٧٨.

وقد أغاث الله ـ تعالىٰ ـ به البشرية المتخبطة في ظلمات الشرك والجهل والخرافة، فكشف به الظلمة، وأذهب الغمة، وأصلح الأمة، وصار «هو الإمام المطلق في الهدىٰ لأول بني آدم وآخرهم»(١)، فهدىٰ الله به من الضلالة، وعلَّم به من الجهالة، وأرشد به من الغواية، وفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، وكثَّر به بعد القلة، وأعزَّ به بعد الذلة، وأغنىٰ به بعد العيلة.

عرَّف الناسَ ربَّهم ومعبودهم غاية ما يمكن أن تناله قواهم من المعرفة، ولم يدع لأمته حاجة في هذا التعريف، لا إلىٰ من قبله، ولا إلىٰ من بعده، بل كفاهم، وشفاهم، وأغناهم عن كل من تكلم في هذا الباب: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]، وعرَّفهم الطريق الموصلة إلىٰ ربهم ورضوانه ودار كرامته، ولم يَدَعْ ﷺ حسناً إلا أمر به، ولا قبيحاً إلا نهىٰ عنه.

وعرَّفهم حالهم بعد القدوم علىٰ ربهم أتم تعريف، فكشف الأمر وأوضحه، ولم يدع باباً من العلم النافع للعباد المقرِّب لهم إلىٰ ربهم إلا فتحه، ولا مشكلاً إلا بيَّنه وشرحه، حتىٰ هدىٰ به القلوب من ضلالها، وشفاها به من أسقامها، وأغاثها به من جهلها؛ فأي بشر أحق بأن يُحب؟! جزاه الله عن أمته أفضل الجزاء.

«ومما يحمد عليه ﷺ ما جبله الله عليه من مكارم الأخلاق وكرائم الشيم؛ فإن من نظر في أخلاقه وشيمه ﷺ علم أنها خير أخلاق الخلق، وأكرم شمائل الخلق، فإنه ﷺ كان أعظم الخلق، وأعظمهم أمانة، وأصدقهم حديثاً، وأجودهم وأسخاهم، وأشدهم احتمالاً، وأعظمهم عفواً ومغفرة، وكان لا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً، كما روىٰ البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال في صفة رسول الله ﷺ في التوراة: «محمد عبدي

(١) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية: ١٠/ ٧٢٧.

ورسولي سميته المتوكل، ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولا سخّاب بالأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن أقبضه حتىٰ أقيم به الملّة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، وأفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً»(١)، وأرحم الخلق وأرأفهم بهم، وأعظم الخلق نفعاً لهم في دينهم ودنياهم، وأفصح خلق الله وأحسنهم تعبيراً عن المعاني الكثيرة بالألفاظ الوجيزة الدالة علىٰ المراد، وأصبرهم في مواطن الصبر، وأصدقهم في مواطن اللقاء، وأوفاهم بالعهد والذمة، وأعظمهم مكافأة علىٰ الجميل بأضعافه، وأشدهم تواضعاً، وأعظمهم إيثاراً علىٰ نفسه، وأشد الخلق ذبّاً عن أصحابه، وحماية لهم، ودفاعاً عنهم، وأقوم الخلق بما يأمر به، وأتركهم لما ينهىٰ عنه، وأوصل الخلق لرحمه، فهو أحق بقول القائل:

بَرْدٌ علىٰ الأدنىٰ ومرحمةٌ وعلىٰ الأعادي مارنٌ جَلْدُ»(٢)

بواعث محبة النبي ﷺ وتعظيمه:

يدعو المسلمَ إلىٰ ذلك أمورٌ عدة، منها:

١ - موافقة مراد الله - عز وجل - في محبته لنبيه ﷺ وتعظيمه له، فقد أقسم بحياته ﷺ تعظيماً له في قوله: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢](٣). كما أثنىٰ عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وقال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، فلا يُذكر بشر في الدنيا ويثنىٰ عليه كما يُذكر النبي ﷺ ويثنىٰ عليه. وقد اتخذه ربه - تعالىٰ - خليلاً ﷺ(٤).

---

(١) البخاري بنحوه: ٣/ ٢١، رقم ٢١٢٥، فتح: ٤/ ٤٠٢.

(٢) جلاء الأفهام، لابن القيم، ت: مشهور سلمان، ص ٢٨٤ - ٢٩١.

(٣) انظر: شرح الشفا للقاضي عياض، لملا علي القاري، ١/ ٧٢، وليس لأحد غير الله - عز وجل - أن يُقسم بالنبي ﷺ ولا بحياته، إذ كيفية التعظيم الشرعية واضحة في القرآن الكريم وعلىٰ لسان النبي ﷺ الذي أوضح أن الحلف بغير الله شرك - كما سيأتي في أثناء هذا الكتاب -.

(٤) كما في حديث مسلم: ٢/ ١٨٥٥، رقم ٢٣٨٣.

قال ابن القيم: «وكل محبة وتعظيم للبشر فإنما تجوز تبعًا لمحبة الله وتعظيمه، كمحبة رسول الله ﷺ وتعظيمه، فإنها من تمام محبة مُرسله وتعظيمه؛ فإن أمته يحبونه لمحبة الله له، ويعظمونه ويجلونه لإجلال الله له؛ فهي محبة لله من موجبات محبة الله، وكذلك محبة أهل العلم والإيمان ومحبة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وإجلالهم تابع لمحبة الله ورسوله ﷺ»(١).

٢ ـ ولذا فإن محبته وتعظيمه ﷺ من شرط إيمان العبد، بل الأمر كما قال ابن تيمية: «إن قيام المدحة والثناء عليه والتعظيم والتوقير له قيام الدين كله، وسقوط ذلك سقوط الدين كله»(٢).

٣ ـ ما ميزه الله ـ تعالىٰ ـ به من شرف النسب، وكرم الحسب، وصفاء النشأة، وكمال الصفات والأخلاق والأفعال.

٤ ـ شدة محبته ﷺ لأمته وشفقته عليها ورحمته بها. قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وكم كان يسأل الله ـ تعالىٰ ـ الخير لأمته ويفرح بفضل الله عليها؟! وكم تحمل من مشاق نشر الدعوة، وأذىٰ المشركين بالقول والفعل حتىٰ أتم الله به الدين وأكمل به النعمة؟!(٣).

وجوب محبة النبي ﷺ:

إن محبة النبي ﷺ أصل عظيم من أصول الدين، فلا إيمان لمن لم يكن الرسول ﷺ أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين.

قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ

---

(١) جلاء الأفهام، ص ٢٩٧.

(٢) الصارم المسلول، ص ٢١١.

(٣) انظر: التأدب مع رسول الله ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، حسن نور حسن، ص ٣٧ ـ ١٢٣.

وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

قال القاضي عياض في شرح الآية: «فكفى بهذا حضاً وتنبيهاً ودلالة وحجة على إلزام محبته، ووجوب فرضها، وعظم خطرها، واستحقاقه لها ﷺ، إذ قرَّع الله من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله، وتوعدهم بقوله - تعالى -: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، ثم فسَّقهم بتمام الآية، وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله»(١).

وقال الله - تعالى -: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] قال رسول الله ﷺ: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرءوا إن اشئتم: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾...»(٢)، وقال رسول الله ﷺ: «أنا أولى بكلِّ مؤمن من نفسه»(٣).

وقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»(٤). وقال أيضاً: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده»(٥).

وعن عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يارسول الله، لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي. فقال النبي ﷺ: «لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من

(١) الشفا بتعريف أحوال المصطفى: ٢/ ١٨.
(٢) البخاري: ٦/ ٢٢، رقم ٤٧٨١، فتح: ٨/ ٣٧٦.
(٣) أخرجه مسلم: ١/ ٥٩٢، رقم ٨٦٧.
(٤) أخرجه البخاري، رقم ١٥، فتح: ١/ ٥٨، ومسلم: ١/ ٦٧، رقم ٤٥.
(٥) أخرجه البخاري، رقم ١٤، فتح: ١/ ٥٨.

نفسك»، فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إليّ من نفسي، فقال النبي ﷺ: «الآن يا عمر»(١). قال ابن حجر: «أي: الآن عرفتَ فنطقتَ بما يجب»(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»(٣).

قال الدكتور محمد درَّاز في شرح هذا الحديث: «ومحبة الله ورسوله هي أرقى أنواع هذه المحبة العقلية وأقواها، فمن كان باعث المحبة عنده معرفة ما في المحبوب من كمال ذاتي فالله - تعالى - أحق (٤) بمحبته؛ إذ الكمال خاصة ذاته، والجمال الأتم ليس إلا لصفاته، والرسول ﷺ أحق من يتلوه في تلك المحبة؛ لأنه أكرم الخلق عند ربه، وهو ذو الخلق العظيم والهدي القويم، ومن كانت محبته للغير تقاس بمقاس ما يوصله إليه ذلك من الغير من المنافع وما يغدق عليه من الخيرات، فالله - تعالى - أحق بهذه المحبة أيضاً، وإن نعمه علينا تجري مع الأنفس ودقات القلوب ولا نعمة إلا هو مصدرها، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]، وهذا الرسول الكريم الرؤوف الرحيم هو واسطة النعمة العظمى، إذ هو الذي أخرجنا الله به من الظلمات إلى النور ومن الضلالة إلى الهدى، واستنقذنا به من النار بعد أن كنا على شفا حفرة منها؛ فليس بعد الله أحد أمنّ علينا منه، ومحبته الحقيقية شعبة من محبة الله»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري: ٧/ ٢١٨، رقم ٦٦٣٢، فتح: ١١/ ٥٣٢.
(٢) الفتح: ١١/ ٥٣٦.
(٣) أخرجه البخاري، رقم ١٦، ٢١، فتح: ١/ ٧٧، ٨٥، ومسلم: ١/ ٦٦، رقم ٤٣.
(٤) في الأصل أحب، ولعل الصواب ما أثبتناه.
(٥) المختار من كنوز السنة، ص ٣٤٤، ٣٤٥.

أقسام محبته ﷺ:

ذكر ابن رجب الحنبلي أن محبة الرسول ﷺ درجتين: «إحداهما: فرض، وهي المحبة التي تقتضي قبول ما جاء به الرسول ﷺ من عند الله، وتلقِّيه بالمحبة والرضا والتعظيم والتسليم، وعدم طلب الهدىٰ من غير طريقه بالكلية، ثم حسن الاتباع له فيما بلَّغه عن ربه، من تصديقه في كل ما أخبر به، وطاعته فيما أمر به من الواجبات، والانتهاء عمَّا نهىٰ عنه من المحرمات، ونصرة دينه، والجهاد لمن خالفه بحسب القدرة، فهذا القدر لا بد منه، ولا يتم الإيمان بدونه.

والدرجة الثانية: فضل، وهي المحبة التي تقتضي حسن التأسي به، وتحقيق الاقتداء بسنته، وأخلاقه، وآدابه، ونوافله، وتطوعاته، وأكله وشربه، ولباسه، وحسن معاشرته لأزواجه، وغير ذلك من آدابه الكاملة، وأخلاقه الطاهرة»(١).

ونقل الحافظ ابن حجر العسقلاني عن بعض العلماء قوله: «محبة الله علىٰ قسمين: فرض وندب، فالفرض: المحبة التي تبعث علىٰ امتثال أوامره والانتهاء عن معاصيه والرضا بما يُقدِّره، فمن وقع في معصية من فعل محرم أوترك واجب فلتقصيره في محبة الله حيث قدَّم هوىٰ نفسه. والتقصير تارة يكون مع الاسترسال في المباحات والاستكثار منها؛ فيورث الغفلة المقتضية للتوسع في الرجاء فيقدم علىٰ المعصية، أو تستمر الغفلة فيقع.

وكذلك محبة الرسول ﷺ علىٰ قسمين كما تقدم، ويزداد: ألا يتلقىٰ شيئاً من المأمور والمنهيات إلا من مشكاته، ولا يسلك إلا طريقته، ويرضىٰ بما شرعه، حتىٰ لا يجد في نفسه حرجاً مما قضاه، ويتخلق بأخلاقه في الجود والإيثار والحلم

---

(١) استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس، ص ٣٤، ٣٥.

والتواضع وغيرها»(١).

المراد بالتعظيم:

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفتح: ٨، ٩].

فذكر ـ تعالى ـ: حقاً مشتركاً بينه وبين رسوله ﷺ وهو الإيمان، وحقاً خاصاً به ـ تعالى ـ وهو التسبيح، وحقاً خاصاً بنبيه ﷺ وهو التعزير والتوقير.

وحاصل ما قيل في معناهما أن: «التعزير اسم جامع لنصره وتأييده ومنعه من كل ما يؤذيه. والتوقير: اسم جامع لكل ما فيه سكينة وطمأنينة من الإجلال والإكرام، وأن يعامل من التشريف والتكريم والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرجه عن حد الوقار»(٢).

وهذه المعاني هي المراد بلفظ التعظيم عند إطلاقه؛ فإن معناه في اللغة: التبجيل، يقال: «لفلان عظمة عند الناس: أي حرمة يعظم لها»(٣)، ولفظ التعظيم وإن لم يرد في النصوص الشرعية، إلا أنه استعمل لتقريب المعنى إلى ذهن السامع بلفظ يؤدي المعنى المراد من (التعزير والتوقير)(٤).

والتعظيم أعلى منزلة من المحبة؛ لأن المحبوب لا يلزم أن يكون معظَّماً، كالولد يحبه والده محبة تدعوه إلى تكريمه دون تعظيمه، بخلاف محبة الولد لأبيه؛ فإنها تدعوه إلى تعظيمه(٥).

---

(١) فتح الباري: ١/ ٦١.
(٢) الصارم المسلول لابن تيمية، ص ٤٢٢.
(٣) لسان العرب، لابن منظور: ٤/ ٣٠٠٥.
(٤) انظر: حقوق النبي ﷺ على أمته، د. محمد التميمي: ٢/ ٤٢٢.
(٥) انظر: شعب الإيمان للبيهقي: ٢/ ١٩٣.

كيف نحقق محبة النبي ﷺ وتعظيمه؟

إن الأمر بمحبة النبي ﷺ وتعظيمه يعني أن ذلك عبادة لله - عز وجل - وقربة إليه - سبحانه -. والعبادة التي أرادها الله - تعالىٰ - ويرضاها من العبد هي ما ابتُغي به وجهه - سبحانه -، وكان علىٰ الصفة التي شرعها في كتابه العظيم وعلىٰ لسان نبيه الكريم ﷺ.

فأما الإخلاص في الأعمال وابتغاء وجه الله - تعالىٰ - فيها فهو مقتضىٰ شهادة أن لا إله إلا الله؛ لأن معناها لا معبود بحق إلا الله - سبحانه وتعالىٰ -.

وأما متابعة النبي ﷺ فهي مقتضىٰ الشهادة بأن محمداً رسول الله، ولازم من لوازمها؛ إذ معنىٰ الشهادة له بأنه رسول الله حقاً: «طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهىٰ وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع»(١).

وهذا تمام المحبة، وكمال التعظيم، وغاية التوقير. وأيُّ تعظيم أو محبة للنبي ﷺ لدىٰ من شك في خبره، أو استنكف عن طاعته، أو ارتكب مخالفته، أو ابتدع في دينه وعبدَ الله من غير طريقه؟!

ولذا اشتد نكير الله - تعالىٰ - علىٰ من سلكوا في العبادة سبيلاً لم يشرعها، فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]. وقال ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»(٢)، أي مردود عليه.

فإذا كانت المحبة والتعظيم عبادة؛ فإن العبادة محلها القلب واللسان والجوارح.

ويتحقق تعظيم النبي ﷺ بالقلب بتقديم محبته علىٰ النفس والوالد والولد والناس أجمعين؛ إذ لا يتم الإيمان إلا بذلك، ثم إنه لا توقير ولا تعظيم بلا محبة.

---

(١) مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب: ١/ ١٩٠.

(٢) رواه مسلم: ٢/ ١٣٤٢، رقم ١٧١٨.

وإنما يزرع هذه المحبة معرفته لقدره ومحاسنه ﷺ(١).

وإذا استقرت تلك المحبة الصادقة في القلب كان لها لوازم هي في حقيقتها مظاهر للتعظيم ودلائل عليه، تظهر على اللسان والجوارح.

وسنرى منزلة النبي ﷺ عند المصطفين من هذه الأمة - رضي الله عنهم - من خلال أمثلة تنطق بالتعظيم وتشهد بالمحبة.

حال الصحابة في محبتهم للنبي ﷺ وتعظيمهم له في حياته:

نال الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - شرف لقاء النبي ﷺ، فكان لهم النصيب الأوفى من محبته وتعظيمه مما سبقوا به غيرهم، ولم ولن يدركهم مَن بعدهم(٢).

فقد سئل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: «كيف كان حبكم لرسول الله ﷺ؟ قال: كان والله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظمأ»(٣).

وسأل أبو سفيان بن حرب - وهو على الشرك حينذاك - زيد بن الدَّثِنة - رضي الله عنه - حينما أخرجه أهل مكة من الحرم ليقتلوه - وقد كان أسيراً عندهم -: أنشدك بالله يا زيد: أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وإنك في أهلك؟ قال: «والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي»!

فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً(٤).

---

(١) انظر: شعب الإيمان للبيهقي: ٢/ ١٣٣.

(٢) انظر مبحثاً جامعاً في: حقوق النبي على أمته، د. محمد التميمي: ٢/ ٤٤٧ - ٤٦١.

(٣) شرح الشفا: ٢/ ٤٠.

(٤) البداية والنهاية لابن كثير: ٤/ ٦٥.

وقال سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ للنبي ﷺ يوم بدر: «يا نبي الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونعد ركائبك، ثم نلقىٰ عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا علىٰ عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرىٰ جلست علىٰ ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حباً لك منهم، ولو ظنوا أنك تلقىٰ حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنىٰ عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير»(١).

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: «لما كان يوم أحد حاص أهل المدينة حَيْصة، قالوا: قُتل محمد، حتىٰ كثرت الصوارخ في ناحية المدينة، فخرجت امرأة من الأنصار متَحزِّمة، فاستُقبلت بابنها وأبيها وزوجها وأخيها(٢)، لا أدري أيهم استقبلت به أولاً، فلمَّا مرت علىٰ أحدهم قالت: من هذا؟ قالوا: أبوك، أخوك، زوجك، ابنك! تقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟! يقولون: أمامك، حتىٰ دفعت إلىٰ رسول الله ﷺ فأخذَتْ بناحية ثوبه، ثم قالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا أُبالي إذ سلمتَ من عطب»(٣). وفي رواية قالت: كل مصيبة بعدك جلل(٤) [أي: يسيرة وهينة].

ولقد «حكَّم الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ رسول الله ﷺ في أنفسهم وأموالهم فقالوا: هذه أموالنا بين يديك؛ فاحكم فيها بما شئت، وهذه نفوسنا بين يديك؛ لو استعرضت بنا البحر لخضناه، نقاتل بين يديك، ومن خلفك، وعن يمينك، وعن شمالك»(٥). وهذا أصدق تعبير عن المحبة.

---

(١) أورده ابن كثير في البداية: ٣/ ٢٦٨.

(٢) أي أُخبرَتْ بمقتل أبيها، وابنها، وزوجها، وأخيها.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط: ٨/ ٢٤٤، وهو في مجمع الزوائد، للهيثمي: ٦/ ١١٥، وذكر أن رجاله ثقات إلا واحداً لم يعرفه. وانظر البداية والنهاية: ٤/ ٤٧.

(٤) رواه ابن هشام في السيرة: ٣/ ٤٣، وعنه أورده ابن كثير في البداية والنهاية: ٤/ ٢٨٠.

(٥) روضة المحبين، ص ٢٧٧، وهو قول سعد بن معاذ في غزوة بدر، كما ذكره أهل السير، انظر: سيرة ابن هشام: ٢/ ١٨٨، وأصله في مسلم: ٢/ ١٤٠٣، رقم ١٧٧٩.

كما كان شأنهم في تعظيمه وتوقيره أوضح وأظهر من أن يستدل عليه، وأجمل من وصف شأنهم في ذلك عروةُ بن مسعود الثقفي - رضي الله عنه - حين فاوض النبي ﷺ في صلح الحديبية، فلمَّا رجع إلىٰ قريش قال: «أي قومِ، والله لقد وفدت علىٰ الملوك ووفدت علىٰ قيصر وكسرىٰ والنجاشي، والله إنْ[1] رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخَّم نخامةً إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون علىٰ وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدُّون النظر إليه تعظيماً له»[2].

وقد وُصف الصحابة حال جلوسهم واستماعهم للنبي ﷺ بوصف عجيب جاء في أحاديث عدة، منها قول أبي سعيد الخدري: «وسكت الناس كأن علىٰ رؤوسهم الطير»[3].

وقال عمرو بن العاص - رضي الله عنه -: «وما كان أحد أحب إليَّ من رسول الله ﷺ ولا أجلّ في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عينيّ منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأني لم أكن أملأ عينيَّ منه»[4].

ولما زار أبو سفيان ابنته أم حبيبة - رضي الله عنها - في المدينة، ودخل عليها بيتها، ذهب ليجلس علىٰ فراش رسول الله؛ فطوته، فقال: يا بنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أو رغبت به عني؟ فقالت: «هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت مشرك نجس؛ فلم أحب أن تجلس علىٰ فراشه»[5].

---

(١) قوله: «إنْ» معناها: (ما) النافية، أي: ما رأيت.

(٢) رواه البخاري: ٣/ ١٧٨، رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢، فتح: ٥/ ٣٨٨.

(٣) أخرجه البخاري: ٣/ ٢١٣-٢١٤، رقم ٢٨٤١، فتح: ٦/ ٥٧.

(٤) أخرجه مسلم: ١/ ١١٢، رقم ١٢١.

(٥) أورده ابن كثير في البداية والنهاية: ٤/ ٢٨٠، وابن حجر في الإصابة: ٤/ ٢٩٩، ٣٠٠.

ومن شدة حرص الصحابة على إكرامه وتجنب إيذائه قول أنس بن مالك: «إن أبواب النبي ﷺ كانت تقرع بالأظافير»(١).

ولما نزل قول الله - تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]، قال ابن الزبير: «فما كان عمر يُسمع النبي ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه»(٢)، وكان ثابت بن قيس جَهْوَرِي الصوت يرفع صوته عند النبي ﷺ، فجلس في بيته منكساً رأسه يرى أنه من أهل النار بسبب ذلك، حتى بشّره النبي ﷺ بالجنة(٣).

دلائل محبته ﷺ ومظاهر تعظيمه:

أولاً: تقديم النبي ﷺ وتفضيله على كل أحد:

فضَّل الله - تعالى - نبيه محمداً ﷺ على جميع الخلق أولهم وآخرهم، فهو خاتم الأنبياء وإمامهم وسيدهم. قال ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى بني هاشم من قريش، واصطفاني من بني هاشم»(٤). وقال: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مُشفَّع»(٥).

ومما ينتج عن اعتقاد تفضيله: استشعار هيبته ﷺ وجلالة قدره وعظيم شأنه، واستحضار محاسنه ومكانته ومنزلته، «والمعاني الجالبة لحبه وإجلاله، وكل ما

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب: ٢/ ٢٠١، رقم ١٥٣١، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: ١/ ٩٥.

(٢) أخرجه البخاري: ٦/ ٤٥، رقم ٤٨٤٥، فتح: ٨/ ٤٥٤.

(٣) انظر: البخاري: ٦/ ٤٥، رقم ٤٨٤٦، فتح: ٨/ ٤٥٥.

(٤) أخرجه مسلم: ٢/ ١٧٨٢، رقم ٢٢٧٦.

(٥) أخرجه مسلم: ٢/ ١٧٨٢، رقم ٢٢٧٨.

من شأنه أن يجعل القلب ذاكراً لحقه من التوقير والتعزير، ومعترفاً به ومذعناً له؛ فالقلب ملك الأعضاء، وهي جند له وتبع، فمتى ما كان تعظيم النبي ﷺ مستقراً في القلب مسطوراً فيه على تعاقب الأحوال فإن آثار ذلك ستظهر على الجوارح حتماً لا محالة. وحينئذ سترى اللسان يجري بمدحه والثناء عليه وذكر محاسنه، وترى باقي الجوارح ممتثلة لما جاء به، ومتبعة لشرعه وأوامره، ومؤدية لما له من الحق والتكريم»(١).

وقد ضلَّ في هذا الباب أصناف من الناس، منهم:

أ- الرافضة الغلاة الذين فضَّلوا أئمتهم -المعصومين بزعمهم!- على النبي ﷺ.

ب- الصوفية الباطنية الذين فضَّلوا الأولياء والأقطاب على النبي ﷺ.

وكلا الفعلين -والعياذ بالله- زندقة وكفر وإلحاد، ومخالفة للنصوص المتواترة وإجماع المسلمين.

ثانياً: سلوك الأدب معه ﷺ:

ويتحقق بالأمور التالية:

أ- الثناء عليه ﷺ بما هو أهله، وأبلغ ذلك ما أثنى عليه ربه -عز وجل- به، وما أثنى هو على نفسه به، وأفضل ذلك:

الصلاة والسلام عليه؛ لأمر الله -عز وجل- وتوكيده: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [**الأحزاب**: ٥٦]، قال ابن عباس: يُصلُّون: يبرِّكون(٢).

---

(١) حقوق النبي ﷺ على أمته، للتميمي: ٢/ ٤٧٠.

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً مجزوماً به في كتاب التفسير: ٦ / ٢٧ . قال الخليل: (البركَة من الزيادة والنماء) معجم مقاييس اللغة: ١/ ٢٣.

وهذا إخبار من الله ـ تعالىٰ ـ : «بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلىٰ بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر ـ تعالىٰ ـ أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالَمين العلوي والسفلي جميعاً»(١)، وصلاة المؤمنين عليه هي الدعاء طلباً للمزيد من الثناء عليه(٢).

وفي الآية أمر بالصلاة عليه، والأمر يقتضي الوجوب؛ لهذا قال النبي ﷺ: «البخيل من ذُكِرتُ عنده فلم يصلّ عليّ»(٣). وقال: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليّ»(٤).

والصلاة عليه مشروعة في عبادات كثيرة كالتشهد، والخطبة، وصلاة الجنازة، وبعد الأذان، وعند الدعاء.. وغيرها من المواطن(٥).

وأفضل صيغها: ما علَّمه النبي ﷺ لأصحابه حين قالوا: «أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة؟ قال: «قولوا: اللهم صل علىٰ محمد، وعلىٰ آل محمد، كما صليت علىٰ آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهم بارك علىٰ محمد، وعلىٰ آل محمد، كما باركت علىٰ آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»(٦).

وغير خافٍ ما في الصلاة عليه من الفوائد والثمرات من كونها سبباً لحصول الحسنات، ومحو السيئات، وإجابة الدعوات، وحصول الشفاعة، وصلاة الله

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٣/ ٥٠٧، وانظر في تفسير الآية فصلاً مطولاً في جلاء الأفهام، ٢٥٣ـ٢٧٦.

(٢) انظر: التأدب مع الرسول ﷺ، حسن نور حسن: ١٩٧.

(٣) أخرجه الترمذي: ٥/ ٥٥١، رقم ٣٥٤٦، وأحمد: ١/ ٢٠١.

(٤) أخرجه أحمد: ٢/ ٢٥٤، والبخاري في الأدب المفرد، ص ٢٢، رقم ٢١، والترمذي: ٥/ ٥٥٠، رقم ٣٥٤٥.

(٥) وقد أوصلها ابن القيم إلىٰ واحد وأربعين موطناً، انظر جلاء الأفهام: ٤٦٣ـ٦١١.

(٦) أخرجه البخاري: ٦/ ٢٧، رقم ٤٧٩٧، الفتح: ٨/ ٣٩٢.

على العبد، ودوام محبة النبي ﷺ وزيادتها، والنجاة من البخل...(١).

ب ـ **الإكثار من ذكره**، والتشوق لرؤيته، و«تعداد فضائله وخصائصه ومعجزاته ودلائل نبوته، وتعريف الناس بسنَّته وتعليمهم إياها، وتذكيرهم بمكانته ومنزلته وحقوقه، وذكر صفاته وأخلاقه وخلاله، وما كان من أمور دعوته وسيرته وغزواته، والتمدح بذلك شعراً ونثراً»(٢). فإن العبد ـ كما قال ابن القيم ـ: «كلما أكثر من ذكر المحبوب واستحضاره في قلبه، واستحضار محاسنه ومعانيه الجالبة لحبه؛ تضاعف حبه له، وتزايد شوقه إليه، واستولى على جميع قلبه. وإذا أعرض عن ذكره وإحضاره وإحضار محاسنه بقلبه نقص حبه من قلبه، ولا شيء أقرّ لعين العبد المحب من رؤية محبوبه، ولا أقرّ لقلبه من ذكره وإحضار محاسنه، فإذا قوي هذا في قلبه جرى لسانه بمدحه والثناء عليه وذكر محاسنه، وتكون زيادة ذلك ونقصانه بحسب زيادة الحب ونقصانه في قلبه»(٣).

ج ـ **التأدب عند ذكره** ﷺ بأن لا يُذكر باسمه مجرداً، بل يوصف بالنبوة أو الرسالة، وهذا كما كان أدباً للصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في ندائه فهو أدب لهم ولغيرهم عند ذكره، فلا يقال: محمد، ولكن: نبي الله، أو الرسول، ونحو ذلك.

تلك خصيصة للنبي ﷺ في خطاب الله ـ تعالى ـ له في كتابه الكريم دون إخوانه من الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فلم يخاطبه ـ تعالى ـ قط باسمه مجرداً، وحين قال: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ**﴾ [الأحزاب: ٤٠] قال بعدها: ﴿**وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾.

يجيء التوجيه إلى هذا الأدب في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضاً**﴾ [النور: ٦٣](٤).

---

(١) ذكر ابن القيم لها ثلاثاً وثلاثين فائدة، انظر جلاء الأفهام: ٦١٢ ـ ٦٢٧.
(٢) حقوق النبي ﷺ على أمته، للتميمي: ٢/ ٤٧٢.
(٣) جلاء الأفهام، ص ٢٦٥.
(٤) انظر: تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٠٦، وجلاء الأفهام، ص ٦٤١، والصارم المسلول، ص ٤٢٢.

د ـ الأدب في مسجده، وكذا عند قبره، وترك اللغط ورفع الصوت، ولذا أنكر عمر ـ رضي الله عنه ـ على من رفع صوته فيه.

عن السائب بن يزيد قال: كنت قائماً في المسجد، فحصبني رجل، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، فقال: «اذهب فائتني بهذين»، فجئته بهما، قال: من أنتما؟ قالا: من أهل الطائف. قال: «لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ؟!»(١).

هـ ـ حفظ حرمة بلده المدينة النبوية؛ فإنها مهاجره، ودار نصرته، وبلد أنصاره، ومحل إقامة دينه، ومدفنه، وفيها مسجده خير المساجد بعد المسجد الحرام.

«والمقصود من تعظيم المدينة هو تعظيم حَرَمها، وهذا أمر واجب في حق من سكن بها أو دخل فيها، مع ما يجب على ساكنيها من مراعاة حق المجاورة وحسن التأدب فيها؛ وذلك لما لها من المنزلة والمكانة عند الله وعند رسوله ﷺ»(٢). فيتأكد فيها العمل الصالح، وتزداد فيها السيئة قبحاً؛ لشرف المكان.

و ـ توقير حديثه، والتأدب عند سماعه، والوقار عند دراسته. وقد كان لسلف الأمة وعلمائها عموماً والمحدثين خصوصاً منهج رصين ورصيد ثريٌّ وإسهام قوي في إجلال حديث رسول الله ﷺ، وتوقير مجلس الحديث، والتحفُّز لاستباق العمل به؛ تعظيماً له.

وهذه بعض الشواهد:

حدَّث عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ فكان مما قال: وما سمعته قط يقول: قال رسول الله ﷺ إلا مرة، فنظرت إليه وقد حل إزاره وانتفخت أوداجه، واغرورقت عيناه، فقال: «أو نحو ذلك أو دون، أو

---

(١) رواه البخاري: ١/ ١٢٠، رقم ٤٧٠، فتح: ١/ ٦٦٧.
(٢) حقوق النبي ﷺ: ٢/ ٤٩٣.

قريبًا من ذلك، أو شبه ذلك»(١).

وجاء عن عِدَّة من الأئمة أنهم كانوا لا يُحدِّثون بحديث رسول الله ﷺ إلا على وضوء، منهم: قتادة، وجعفر بن محمد، ومالك بن أنس، والأعمش؛ بل قد صار ذلك مستحباً عندهم، وكرهوا خلافه. قال ضرار بن مرة: «كانوا يكرهون أن يُحدِّثوا عن رسول الله ﷺ وهم على غير وضوء». قال إسحاق: «فرأيت الأعمش إذا أراد أن يتحدث وهو على غير وضوء تيمم»(٢).

وقال أبو سلمة الخزاعي: «كان مالك بن أنس إذا أراد أن يخرج يُحدِّث؛ توضأ وضوءه للصلاة، ولبس أحسن ثيابه، ولبس قلنسوة، ومشط لحيته! فقيل له في ذلك، فقال: أوقِّر به حديث رسول الله ﷺ»(٣).

وقال ابن أبي الزناد: كان سعيد بن المسيب ـ وهو مريض ـ يقول: «أقعدوني؛ فإني أعظم أن أُحدِّث حديث رسول الله ﷺ وأنا مضطجع»(٤).

ومرّ مالك بن أنس على أبي حازم ـ وهو يُحدِّث ـ فجازه، وقال: «إني لم أجد موضعاً أجلس فيه، فكرهت أن آخذ حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم»(٥).

و«كان محمد بن سيرين يتحدث فيضحك، فإذا جاء الحديث خشع»(٦).

وقال أحمد بن سليمان القطان: و «كان عبد الرحمن بن مهدي لا يُتحدث في مجلسه، ولا يُبرى فيه قلم، ولا يبتسم أحد؛ فإن تُحدث أو بُري قلم..

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: ٢/ ٦٦، ٦٧، وانظر شرح الشفا: ٢/ ٧٤.
(٢) انظر جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر: ٢/ ١٢١٧، شرح الشفا: ٢/ ٧٧.
(٣) الجامع للخطيب البغدادي: ٢/ ٣٤، وانظر شرح الشفا: ٢/ ٧٧.
(٤) الجامع للخطيب: ٢/ ٤٥، وجامع بيان العلم: ٢/ ١٢٢٠.
(٥) الجامع للخطيب: ٢/ ٥٣.
(٦) الجامع للخطيب: ٢/ ٥٧.

صاح ولبس نعليه ودخل! وكذا كان يفعل ابن نمير، وكان من أشد الناس في هذا، وكان وكيع أيضاً في مجلسه كأنهم في صلاة، فإن أنكر من أَمْرهم شيئاً انتعل ودخل، وكان ابن نمير يغضب ويصيح، وكان إذا رأىٰ من يبري قلماً تغير وجهه». وقال حماد بن سلمة: «كنا عند أيوب نسمع لغطاً! فقال: ما هذا اللغط؟! أما بلغهم أن رفع الصوت عند الحديث عن رسول الله ﷺ كرفع الصوت عليه في حياته؟!»(١).

ثالثاً: تصديقه فيما أخبر:

من أصول الإيمان وركائزه الرئيسة، الإيمان بعصمة النبي ﷺ من الكذب أو البهتان، وتصديقه في كل ما أخبر من أمر الماضي أوالحاضر أو المستقبل، قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ**﴾ [**النجم**: ١ – ٤].

والجفاء كل الجفاء، بل الكفر كل الكفر اتهامه وتكذيبه فيما أخبر، ولهذا ذم الله المشركين بقوله: ﴿**وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ**﴾ [**يونس**: ٣٧ – ٣٩].

قال الإمام ابن القيم: «فرأس الأدب مع الرسول ﷺ: كمال التسليم له، والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق، دون أن يُحمله معارضة بخيال باطل يسميه معقولاً، أو يُحمله شبهة أو شكاً، أو يقدم عليه آراء الرجال وزبالات أذهانهم، فيوحِّده بالتحكيم والتسليم، والانقياد والإذعان، كما وحَّد

(١) الجامع للخطيب: ١/ ١٢٨، ١٣٠.

المرسلَ ـ سبحانه وتعالىٰ ـ بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل»(١).

وانظر إلىٰ المنزلة العالية الرفيعة التي حازها أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ الذي آمن بالنبي ﷺ حقَّ الإيمان؛ فصدَّقه حق التصديق؛ فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «لما أسري بالنبي ﷺ إلىٰ المسجد الأقصىٰ، أصبح يتحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه، وسعوا بذلك إلىٰ أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ، فقال: هل لك إلىٰ صاحبك، يزعم أنه أسري به الليلة إلىٰ بيت المقدس؟ قال: أوَ قال ذلك؟ قال: نعم! قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلىٰ بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟! قال: نعم! إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة. فلذلك سمي أبو بكر الصديق»(٢).

ومن لطائف هذا الباب التي تدل علىٰ منزلة الشيخين الجليلة، أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «بينما راع في غنمه عدا عليه الذئب فأخذ منها شاة فطلبها حتىٰ استنقذها، فالتفت إليه الذئب، فقال له: من لها يوم السبع ليس لها راع غيري؟! وبينما رجل يسوق بقرة قد حمل عليها، فالتفتت إليه، فكلمته فقالت: إني لم أخلق لهذا، ولكني خُلقت للحرث، فقال الناس: سبحان الله! قال النبي ﷺ: «فإني أومن بذلك وأبوبكر وعمر بن الخطاب»(٣).

رابعاً: اتباعه وطاعته، والاهتداء بهديه:

الأصل في أفعال النبي ﷺ وأقواله أنها للاتباع والتأسي، قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾ [**الأحزاب**: ٢١].

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٣٨٧.
(٢) أخرجه الحاكم: ٣/ ٦٢، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني لشواهده في السلسلة الصحيحة، رقم ٣٠٦.
(٣) أخرجه البخاري في عدة مواضع منها: ٤/ ٢٠٠، ١٩٢، ١٤٩، رقم ٣٦٩٠، ٣٦٦٣، ٣٤٧١، فتح: ٦/ ٥٩٢.

قال ابن كثير: «هذه الآية أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله، وأحواله، ولهذا أمر الله - تبارك وتعالى - الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظار الفرج من ربه عز وجل»(١).

وجاء أمر الله - سبحانه وتعالى - في وجوب طاعة الرسول ﷺ في آيات كثيرة، منها قوله - تعالى -: ﴿**مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا**﴾ [النساء: ٨٠].

وأمر بالرد عند التنازع إلى الله والرسول، فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا**﴾ [النساء: ٥٩].

وتواترت النصوص النبوية في الحث على اتباعه وطاعته، والاهتداء بهديه والاستنان بسُنَّته، وتعظيم أمره ونهيه، ومن ذلك قول الرسول ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي»(٢).

وقوله ﷺ: «لتأخذوا عني مناسككم»(٣).

وقوله ﷺ: «فعليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»(٤)، قال الإمام الخطابي: «إنما أراد بذلك الجد في لزوم السنَّة، فِعْل من أمسك الشيء بين أضراسه، وعضَّ عليه منعاً له أن ينتزع، وذلك أشد ما يكون من التمسك بالشيء، إذ كان ما يمسكه بمقاديم فمه أقرب تناولاً وأسهل انتزاعاً»(٥).

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٤٧٥.

(٢) أخرجه البخاري: ١/ ١٥٥، رقم ٦٣١، فتح: ٢/ ١٣٢.

(٣) أخرجه مسلم: ١/ ٩٤٣، رقم ١٢٩٧.

(٤) أخرجه أحمد: ٤/ ١٢٦، ١٢٧، وأبو داود: ١٣ - ١٥، والترمذي، وابن ماجه: ١/ ١٦.

(٥) معالم السنن، بحاشية مختصر سنن أبي داود: ٧/ ١٢.

فطاعة الرسول ﷺ هي المثال الحي الصادق لمحبته عليه الصلاة والسلام، فكلما ازداد الحب، زادت الطاعات، ولهذا قال الله - عز وجل -: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[آل عمران: ٣١].

فالطاعة ثمرة المحبة، وفي هذا يقول أحد الشعراء:

تعصي الإله وأنت تزعم حبَّه ... ذاك لعمري في القياس بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعتَه ... إن المحبَّ لمن أحب مطيع

خامساً: التحاكم إلى سنَّة النبي ﷺ:

إن التحاكم إلى سنَّة النبي ﷺ أصل من أصول المحبة والاتباع؛ فلا إيمان لمن لم يحتكم إلى شريعته، ويُسلِّم تسليماً، قال الله - تعالى -: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقال الله - تعالى -: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب: ٢٦].

وقد بيَّن الله - سبحانه وتعالى - أن من علامات الزيغ والنفاق: الإعراض عن سنَّته، وترك التحاكم إليها، قال الله - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠، ٦١].

قال ابن تيمية: «فكل من خرج عن سنَّة رسول الله ﷺ وشريعته؛ فقد أقسم الله بنفسه المقدسة أنه لا يؤمن، حتى يرضى بحكم رسول الله ﷺ في جميع ما شجر بينهم من أمور الدين أو الدنيا، وحتى لا يبقى في قلوبهم حرج من حكمه»(١).

---

(١) مجموع الفتاوى: ٥٨/ ٤٧١.

وقال ابن القيم: «فجعل الإعراض عما جاء به الرسول، والالتفاف إلىٰ غيره هو حقيقة النفاق، كما أن حقيقة الإيمان هو تحكيمه وارتفاع الحرج عن الصدور بحكمه، والتسليم لما حكم رضىٰ واختياراً ومحبة، فهذا حقيقة الإيمان، وذلك الإعراض حقيقة النفاق»(١).

سادساً: الذبُّ عنه:

إن الدفاع عن رسول الله ﷺ ونصرته، آية عظيمة من آيات المحبة والإجلال، قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ [الحشر: ٨].

ولقد سطر الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أروع الأمثلة وأصدق الأعمال في الذبِّ عن رسول الله ﷺ، وفدائه بالأموال والأولاد والأنفس، في المنشط والمكره، في العسر واليسر، وكُتب السير عامرة بقصصهم وأخبارهم التي تدل علىٰ غاية المحبة والإيثار والتعظيم.

ومن ذلك أن أبا طلحة الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ كان يحمي الرسول ﷺ في غزوة أحد، ويرمي بين يديه، ويقول: «بأبي أنت وأمي، لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك»(٢).

وعن قيس بن أبي حازم قال: «رأيت يد طلحة شلاء، وقىٰ بها النبي ﷺ يوم أحد»(٣).

وما أجمل ما قاله أنس بن النضر يوم أحد لما انكشف المسلمون: «اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني أصحابه ـ، وأبرأ إليك مماصنع هؤلاء ـ يعني

(١) مختصر الصواعق المرسلة: ٢/ ٣٥٣.
(٢) أخرجه البخاري: ٥/ ٣٣، رقم ٤٠٦٤، فتح: ٧/ ٤١٨.
(٣) أخرجه البخاري: ٥/ ٣٣، رقم ٤٠٦٣، فتح: ٧/ ٤١٦.

المشركين -، ثم تقدم فاستقبله سعد، فقال: يا سعد بن معاذ، الجنة وربِّ النضر إني أجد ريحها من دون أحد، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس بن مالك: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل، وقد مثَّل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه»(١).

والذبُّ عن النبي ﷺ يقتضي أموراً، منها:

(١) الذبُّ عن أصحابه رضي الله عنهم:

أجمعت الأمة على أن جميع الصحابة - رضي الله عنهم - ثقات عدول، وأنهم أفضل هذه الأمة بعد النبي ﷺ، وقد تواترت النصوص من الكتاب والسنة في بيان ذلك، ومنها:

قال الله - تعالى -: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾ [الفتح: ١٨].

وقال الله - تعالى -: ﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أحداً من أصحابي؛ فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه»(٢).

وحقوق الصحابة - رضي الله عنهم - كثيرة جداً، ومنها:

---

(١) أخرجه البخاري: ٣/ ٣٠٥، ٥/ ٣١، رقم ٢٨٠٥، ٤٠٤٨، الفتح: ٦/ ٢٦، ٧/ ٤١١.
(٢) رواه مسلم: ٢/ ١٩٦٨، رقم ٢٥٤١.

أ ـ محبتهم والترضي عنهم:

قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

ب ـ الاهتداء بهديهم والاقتداء بسنتهم:

قال رسول الله ﷺ: «فإنه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضُّوا عليها بالنواجذ»(١).

ولكن المبتدعة انحرفوا في حق الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ولم يعرفوا لهم فضلهم وسابقتهم، بل قدحوا فيهم، وقلَّلوا من شأنهم، بل إن غلاة المبتدعة اتهموهم بالكذب والنفاق والخيانة، ولهذا قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «أُمروا أن يستغفروا لأصحاب رسول الله ﷺ فسبُّوهم»(٢).

والقدح في الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ قدح في النبي ﷺ؛ فهم خاصته وبطانته، ولهذا قال الإمام مالك وغيره: «إنما أراد هؤلاء الرافضة الطعن في الرسول ليقول القائل: رجل سوء كان له أصحاب سوء، ولو كان رجلاً صالحاً لكان أصحابه صالحين»(٣).

وقال ابن تيمية: « وأما الرافضة فيطعنون في الصحابة، وباطن أمرهم الطعن في الرسالة»(٤).

---

(١) أخرجه أحمد: ٤/١٢٦، ١٢٧، وأبوداود، رقم٧٠٤٦، والترمذي، رقم ٢٦٧٦، وابن ماجه، رقم٤٣. وإسناده صحيح.

(٢) رواه مسلم في التفسير: ٣/ ٢٣١٧، رقم ٣٠٢٢.

(٣) منهاج السنة: ٧/ ٤٥٩.

(٤) المرجع السابق: ٣/ ٤٦٣.

(٢) الذبُّ عن زوجاته أمهات المؤمنين رضي الله عنهن :

من الذبِّ عن النبي ﷺ: الذبُّ عن عِرضه وعِرض زوجاته الطاهرات المطهرات ـ رضي الله عنهن ـ، وخاصة أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ التي برأها الله ـ عز وجل ـ من فوق سبع سموات في آيات تتلىٰ إلىٰ قيام الساعة. قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ إلىٰ أن قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١١ – ١٧].

قال الإمام مالك «من سبَّ أبا بكر جلد، ومن سبَّ عائشة قتل»، قيل له: لم؟ قال: «من رماها فقد خالف القرآن»(١).

وقال ابن كثير: «وقد أجمع العلماء ـ رحمهم الله ـ قاطبة علىٰ أن من سبَّها بعد هذا الذي ذكره في هذه الآية فإنه كافر لأنه معاند للقرآن»(٢).

والوقيعة في زوجات النبي ﷺ واتهامهن بالباطل من أعظم الإيذاء للنبي ﷺ ولهذا قال القرطبي في تفسير قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾: «يعني في عائشة لأنَّ مثله لا يكون إلا نظير القول في المقول عنه بعينه، أو فيمن كان في مرتبته من أزواج النبي ﷺ، لما في ذلك من أذية رسول الله ﷺ في عرضه وأهله، وذلك كفر من فاعله»(٣).

سابعاً: الذبُّ عن سنَّته:

ومن الذبِّ عن سنَّته ﷺ حفظها وتنقيحها، وحمايتها من انتحال المبطلين

---

(١) الصارم المسلول، ص ٥٧١.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٢٧٦.

(٣) تفسير القرطبي: ١٢/ ٥٢.

وتحريف الغالين وتأويل الجاهلين، ورد شبهات الزنادقة والطاعنين في سنَّته، وبيان أكاذيبهم ودسائسهم، وقد دعا رسول الله ﷺ بالنضارة لمن حمل هذا اللواء بقوله: «نضَّر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلَّغه كما سمعه، فرب مُبلَّغ أوعىٰ من سامع»(١).

ومن الذبِّ عن سنته أيضاً: الرد علىٰ شبهات المستهزئين بما ثبت من هديه في القول أو الفعل أو الاعتقاد، كاستهزاء بعضهم بالحجاب، أو باللحية، أو برفع الإزار فوق الكعبين، أو بالسواك، ونحوها. والاستهزاء بالسنة الصحيحة الثابتة كفر يخرج من الملَّة، قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝٦٥ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

والتهاون في الذبِّ عن رسول الله ﷺ وشريعته من الخذلان الذي يدل علىٰ ضعف الإيمان، أو زواله بالكلية، فمن ادعىٰ الحب ولم تظهر عليه آثار الغيرة علىٰ حرمته وعرضه وسنَّته، فهو كاذب في دعواه. وقد كان لأئمة الحديث القدح المعلىٰ في تنقيح السنَّة، وتمييز الطيب من الخبيث، وفحص الرواة ومعرفة أحوالهم، وما أحسن ما قاله أبو بكر ابن خلاد في بيان حرص السلف الصالح علىٰ الذبِّ عن السنَّة النبوية، حيث قال: «دخلت علىٰ يحيىٰ بن سعيد في مرضه، فقال لي: يا أبا بكر، ما تركت أهل البصرة يتكلمون؟ قلت: يذكرون خيراً، إلا أنهم يخافون عليك من كلامك في الناس! فقال: احفظ عني، لأن يكون خصمي في الآخرة رجل من عرض الناس أحب إلي من أن يكون خصمي في الآخرة النبي ﷺ، يقول: بلغك عني حديث وقع في وهمك أنه عني غير صحيح ـ يعني فلم تنكر ـ»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد: ١/ ٤٣٧، والترمذي: ٥/ ٣٤، وابن ماجه: ١/ ٨٥.

(٢) انظر: منهج النقد عند المحدثين، ص ٧.

قال محمد بن المرتضي اليماني: «المحامي عن السنَّة الذابُّ عن حماها كالمجاهد في سبيل الله - تعالىٰ -، يعد للجهاد ما استطاع من الآلات والعدة والقوة، كما قال الله - سبحانه -: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقد ثبت في الصحيح أن جبريل (عليه السلام) كان مع حسان بن ثابت يؤيده ما نافح عن رسول الله ﷺ في أشعاره، فكذلك من ذبَّ عن دينه وسنَّته من بعده إيماناً به، وحباً ونصحاً له»(١).

ثامناً: نشر سنته ﷺ:

من تمام محبة النبي ﷺ وتعظيمه: الحرص علىٰ نشر السنَّة وتبليغها، وقد ثبت عنه أنه قال في أحاديث كثيرة: «فليبلغ الشاهد الغائب»(٢)، وقال: «بلغوا عني ولو آية»(٣)، وعن أبي موسىٰ الأشعري عن النبي ﷺ قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدىٰ والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الأرض فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرىٰ إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعَلِم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدىٰ الله الذي أرسلت به»(٤). فامتدح ﷺ من كان له قلب حافظ للعلم فنشره بين الناس فانتفعوا به، وهذه هي المرتبة الثانية - المشار إليها في الحديث -، فأما من أوتي فهماً ثاقباً مع حفظه للعلم فانتفع أولاً ونفع ثانياً فهو لا شك أكمل وأفضل، وهذه هي المرتبة الأولىٰ.

والحرص علىٰ نشر السنَّة وتبليغها وتعليمها للناس باب عظيم من أبواب

---

(١) إيثار الحق علىٰ الخلق، ص ٢٠.

(٢) أخرجه البخاري: ٢/ ١٩١، رقم ١٧٣٩، الفتح: ٣/ ٦٧٠، ومسلم: ٢/ ١٣٠٣، رقم ١٦٧٩.

(٣) أخرجه البخاري: ٣/ ١٤٥، رقم ٣٤٦١، الفتح: ٦/ ٥٧٢.

(٤) أخرجه البخاري: ١/ ٢٨، رقم ٧٩، فتح: ١/ ٢١١، ومسلم: ٢/ ١٧٨٧، رقم ٢٢٨٢.

محبة النبي ﷺ وتعظيمه؛ لأن في ذلك سعي لإعلاء سنَّته، ونشر هديه بين الناس. ومن مقتضيات ذلك: الحرص على إماتة البدع والضلالات المخالفة لأمره وهديه، ولا شك بأن الابتداع في دينه من خوارم المحبة الصادقة؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد»(١).

ومن تلبيس الشيطان على بعض الجهلة وأهل الأهواء أنهم يزعمون أن الابتداع في دين النبي ﷺ من تمام المحبة له، وهذا جهل عظيم، فالمحبة تقتضي التسليم للمحبوب، وتتبع آثاره، والوقوف عند أمره ونهيه، والحرص على عدم النقص أو الزيادة في دينه.

ولهذا تجد أن المبتدع لا يحب نشر السنَّة النبوية، ويسعى لكتمانها، قال ابن تيمية: «من المعلوم أنه لا تجد أحداً ممن يرد نصوص الكتاب والسنَّة بقوله إلا وهو يبغض ما خالف قوله، ويَودُّ أن تلك الآية لم تكن نزلت، وأن ذلك الحديث لم يَرِد، ولو أمكنه كشط الحديث من قلبه. وقيل عن بعض رؤوس الجهمية ـ إما بشر المريسي أو غيره ـ: أنه قال: ليس شيء أنقص لقولنا من القرآن، فأقِروا به في الظاهر، ثم حرِّفوه بالتأويل. ويقال إنه قال: إذا احتجوا عليكم بالحديث فغالوطهم بالتكذيب، وإذا احتجوا بالآيات فغالطوهم بالتأويل.

ولهذا تجد الواحد من هؤلاء لا يحب تبليغ النصوص النبوية، بل قد يختار كتمان ذلك والنهي عن إشاعته وتبليغه، خلافاً لما أمر الله به ورسوله من التبليغ عنه»(٢).

تلك أمارات حبِّ النبي ﷺ وتعظيمه، تُقاس بها درجة التعظيم، وتُفحص بها حرارة المحبة، نسأل الله أن يعيننا وإخواننا المسلمين أجمعين على التزامها ما حيينا.

---

(١) أخرجه البخاري: ٣/ ١٦٧، رقم ٢٦٩٧، الفتح: ٥/ ٣٥٥.

(٢) منهاج السنة النبوية: ٥/ ٢١٧، ٢١٨.

اتباع النبي ﷺ في ضوء الوحيين

فيصل بن علي البعداني

اتباع النبي ﷺ في ضوء الوحيين

فيصل بن علي البعداني

اتباع النبي ﷺ أحد ركائز دين الإسلام وأساسياته، ومن أعظم مُسلَّمات الشريعة والأمور المعلومة منها بالضرورة، وقد استفاضت النصوص الشرعية الصحيحة في بيان ذلك والتأكيد عليه، ومن ذلك قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠]. إلا أن ذلك لم يمنع انحراف طوائف من المسلمين عن سلوك الجادة فيه ولزوم الطريق السوي، حيث اضطربت فيه أفهام وزلَّت أقدام؛ مما جعل الحاجة لإيضاحه تعظم، والبيان يتوجب، ولذا: فسأحاول في هذه الدراسة التعريج عليه لإظهار حقيقته وحكمه، وتجلية منزلته وشيء من مظاهره، وبيان السبل المعينة علىٰ فعله وبعض عوائقه، راجياً من ربي الغفور أن يوفق للخير ويصلح القصد، إنه علىٰ كل شيء قدير وبالإجابة جدير.

الاتباع في اللغة:

مصدر اتبع الشيء إذا سار في أثره وتلاه، والكلمة تدور حول معاني اللحاق والتطلب والاقتفاء والاقتداء والتأسي.

يقال: اتبع القرآن: ائتم به وعمل بما فيه، واتبع الرسول ﷺ: اقتدىٰ به واقتفىٰ أثره وتأسىٰ به[1].

الاتباع في الشرع:

هو الاقتداء والتأسي بالنبي ﷺ في الاعتقادات والأقوال والأفعال والتروك،

(١) انظر لسان العرب: ١/ ٤١٦ ـ ٤١٧، المعجم الوسيط: ١/ ٨١.

بعمل مثل عمله، على الوجه الذي عمله ﷺ، من إيجاب أو ندب أو إباحة أو كراهة أو حظر، مع توفر القصد والإرادة في ذلك.

ويكون الاتباع للنبي ﷺ في الاعتقادات: بأن يعتقد العبد ما اعتقده النبي ﷺ، على الوجه الذي اعتقده ـ من ناحية الوجوب أو البدعية، أو لكونه من أسس الدين أو ناقضاً لأصله أو قادحاً في كماله . . إلخ ـ، من أجل أنه اعتقده ﷺ.

ويكون الاتباع للنبي ﷺ في الأقوال: بامتثال مدلولها، وما جاءت به من معاني، لا أن تكرر ألفاظها وتردد نصوصها فحسب، فمثلاً: الاتباع لقوله ﷺ: «صلُّوا كما رأيتموني أصلي»(١) يكون بالصلاة كصلاته، والاتباع لقوله ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا»(٢) بترك الحسد والنجش، والاتباع لقوله ﷺ: «من سئل عن علم علمه ثم كتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار»(٣) بنشر الإنسان لعلمه الصحيح النافع وعدم كتمانه له.

كما يكون الاتباع للنبي ﷺ في الأفعال: بأن نفعل مثل فعله، على الوجه الذي فعله، من أجل أنه فعله.

فقولنا: (مثل فعله)؛ لأنه لا تأسي مع اختلاف صورة الفعل وكيفيته.

وقولنا: (على الوجه الذي فعله): معناه المشاركة في غرض ذلك الفعل ونيته ـ إخلاصاً، وتحديداً للفعل من حيث كونه واجباً أو مندوباً ـ؛ لأنه لا تأسي مع اختلاف الغرض والنية، وإن اتحدت صورة الفعل.

وقولنا: (من أجل أنه فعله)؛ لأنه لو اتحدت الصورة والقصد ولم يكن المراد التأسي والاقتداء فإنه لا يكون اتباعاً.

---

(١) البخاري مع الفتح: ٢/ ١٣١، ١٣٢، رقم ٦٣١.

(٢) مسلم: ٤٤/ ١٩٨٦، رقم ٢٥٦٤.

(٣) الترمذي: ٥/ ٢٩، رقم ٢٦٤٩: وصححه الألباني في صحيح الترمذي: ٢/ ٣٣٦، رقم ٢١٣٥.

ولتوضيح الاتباع في الفعل: لو أردنا أن نقتدي بالنبي ﷺ في صومه فلا بد أن نصوم على الصورة التي صامها ﷺ، بحيث نمسك عن جميع المفطرات من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس، بقصد التقرب إلى الله -تعالى-، فلو أمسك أحدنا عن بعض المفطرات فقط لم يكن متبعاً، كما لو أمسك في جزء من الوقت فقط لم يكن متبعاً.

كما لا بد أن نصوم على الوجه الذي صامه ﷺ من ناحية القصد بحيث نريد بصيامنا وجه الله -تعالى-، وصيام الواجب -أداءً أو قضاءً أو نذراً-، أو النفل، كالقصد الذي صام لأجله ﷺ(١).

كما لا بد أن نصوم من أجل أنه صام ﷺ؛ ولذا لا يعد الشخص متأسياً بشخص آخر -غير النبي ﷺ- يشاركه في الصورة والقصد إذا كان كل منهما يعمل ذلك امتثالاً لأمر الله -تعالى- واتباعاً لرسوله ﷺ.

ويكون الاتباع للنبي ﷺ في التروك: بأن نترك ما ترك، على الصفة والوجه الذي ترك، من أجل أنه ترك، وهي القيود نفسها في الاتباع في الأفعال.

ولتوضيح ذلك: قام النبي ﷺ بترك الصلاة عند طلوع الشمس، فيترك المتأسي الصلاة في ذلك الوقت على الوجه الذي ترك النبي ﷺ، لأجل أنه ترك(٢).

المخالفة ضد الاتباع:

ضد الاتباع المخالفة، وتكون في الاعتقاد والقول والفعل والترك.

فأما المخالفة في الاعتقاد فتكون بأن يعتقد العبد خلاف ما اعتقده النبي ﷺ، كأن يستحل إنسان ما عُلم بالضرورة تحريمه من دين الإسلام، أو يوجب ما علم

---

(١) إذا ثبتت كيفيات أو مقاصد خاصة بالنبي ﷺ كالوصال في الصوم والوجوب في قيام الليل: فلا يجوز مشاركة النبي ﷺ فيما اختص به من كيفية أو قصد: وتبقى قضية الاتباع مرتبطة بالمقاصد والكيفيات التي شرعها ﷺ لأمته.

(٢) انظر: الفتاوى لابن تيمية: ١٠/ ٤٠٩، والإحكام للآمدي: ١/ ٢٢٦، ٢٢٧.

بالضرورة حله أو تحريمه من دين الإسلام، ومثل أن يبتدع عبد في دين الله -تعالى- ما ليس منه، ومثل أن يعتقد أحد بأن المخالفين لشرع الله -تعالى- وما جاء به النبي ﷺ هم أولياء الله وأحبته.

والمخالفة في القول تكون بترك امتثال ما اقتضاه القول ودل عليه من وجوب أو حظر.

والمخالفة في الفعل تكون بالعدول عن مثله مع كونه واجباً.

والمخالفة في الترك تكون بفعل ما ترك مع كونه محرماً.

ولا تكون المخالفة في ترك المندوب وفعل المكروه، بل لا تكون إلا في ترك الواجب وفعل المحرم، سواء أكانت مخالفة في القول أم الفعل أم الترك[1].

علاقة الاتباع بالزمان والمكان:

لا علاقة للزمان المخصص أو المكان المخصص بالفعل لمجرد وقوعه فيه إلا بدليل خارجي عن ذلك الفعل، فإن خصص المصطفى ﷺ لنا بذلك الدليل الخارجي لذلك الفعل زماناً أو مكاناً خصصناه به، كتخصيص الطواف بالكعبة، والاستلام بالحجر الأسود والركن اليماني -مع اختلاف في الصفة-، والصيام الواجب بشهر رمضان، والوقوف بعرفات في اليوم التاسع من ذي الحجة، وعيدي الفطر والأضحى بوقتهما المعروف.

وأما ما فعله بحكم الاتفاق والمصادفة، ولم يقصده لذاته، فلا تشرع فيه المتابعة ولو تكرر ذلك، مثل: أن ينزل بمكان، ويصلي فيه لكونه نزل فيه، لا قصداً لتخصيصه بالصلاة والنزول فيه، فإذا قصدنا تخصيص ذلك المكان بالصلاة فيه أو النزول لم نكن متبعين -على الأصوب-، وقد ورد نهي الفاروق عمر -رضي الله عنه- حين رأى الناس في سفر يتبادرون إلى مكان فسأل عن ذلك، فقالوا: قد

---

(١) انظر الإحكام للآمدي: ١/ ٢٢٧.

صلىٰ فيه النبي ﷺ، فقال: «إنما هلك أهل الكتاب أنهم اتبعوا آثار أنبيائهم فاتخذوها كنائس وبيعاً، فمن عرضت له الصلاة [أي: في موضع صلاته ﷺ] فليصل أو فَلْيَمضِ»(١)، وفي رواية أنه قال: «من أدركته الصلاة في شيء من هذه المساجد التي صلىٰ فيها رسول الله ﷺ فليصل فيها وإلا فلا يتعمدها»(٢). وتؤكد هذا المعنىٰ أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ فتقول: «نزول الأبطح ليس بسنَّة، إنما نزله رسول الله ﷺ لأنه كان أسمح لخروجه إذا خرج»(٣).

وقد قرر كثير من أهل العلم هذا المعنىٰ: كابن تيمية في الفتاوىٰ(٤)، والآمدي في إحكامه حيث قال: «... فلو وقع فعله في مكان أو زمان مخصوص فلا مدخل له في المتابعة والتأسي، وسواء تكرر أو لم يتكرر، إلا أن يدل الدليل علىٰ اختصاص العبادة به، كاختصاص الحج بعرفات، واختصاص الصلوات بأوقاتها، وصوم رمضان»(٥).

الأفعال النبوية من حيث الاتباع والتأسي:

تنقسم أفعال النبي ﷺ من حيث الاتباع والتأسي إلى ثلاثة أقسام هي:

١ ـ الأفعال الجبلِّية:

كالقيام والقعود والشرب والنوم ونحو ذلك، وهي نوعان من جهة التأسي والاتباع:

* نوع جاء النص ـ الخارج عن الفعل ـ بإيجابه أو ندبه، كالأكل باليمين، والشرب ثلاثاً وقاعداً، والنوم علىٰ الشق الأيمن، فهذا يشرع التأسي والاقتداء به في ذلك.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ: ١٠/ ٤١٠، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: ثبت بالإسناد الصحيح، فتح الباري لابن حجر: ١/ ٥٦٩.

(٢) مختصر المختصر لأبي المحاسن الحنفي: ٢/ ١٧٧.

(٣) صحيح مسلم: ٢/ ٩٥١، رقم ١٣١١.

(٤) انظر الفتاوىٰ لابن تيمية: ١٠/ ٤٠٩.

(٥) الإحكام للآمدي: ١/ ٢٢٦.

* ونوع لم يأت نص دال على مشروعيته، وهو باق على الأصل من حيث الإباحة للجميع؛ وذلك لأن «الأوصاف التي يطبع عليها الإنسان كالشهوة إلى الطعام والشراب لا يطلب برفعها ولا بإزالة ما غرز في الجبلة منها»(١).

وهذا النوع محل خلاف بين أهل العلم في مشروعية التأسي والاقتداء به ﷺ فيه - على جهة الندب - على قولين:

أ - أن التأسي والاقتداء بالنبي ﷺ في هذا النوع مندوب، وقد كان ابن عمر - رضي الله عنه - يفعل مثل ذلك وإن كان قد فعله ﷺ اتفاقاً ولم يقصده.

ب - أنه لا يشرع التأسي والاقتداء بالنبي ﷺ، وهذا قول جمهور الصحابة - رضي الله عنهم - وفعلهم، ومنهم الفاروق وعائشة - رضي الله عنهما - كما في كلامهما المتقدم(٢).

ويلحق بالأفعال الجبلِّية: الأفعال التي فعلها النبي ﷺ بمقتضى العرف والعادة كلبس الجبة والعمامة وإطالة الشعر ونحو ذلك؛ إذ لا تدل - على الأظهر - على غير الإباحة إلا إذا ورد دليل على مشروعيتها(٣).

٢ - الأفعال التي علم أنها من خصائصه ﷺ:

ذكر أهل العلم في باب خصائصه ﷺ أموراً من المباحات والواجبات والمحرمات، بعضها متفق على حكمه بالنسبة له ﷺ، وبعضها الآخر فيه خلاف - ليس المقام مقام تحريرها -. فمن المباح له: الزيادة على أربع نسوة في النكاح، والنكاح بلا مهر، ونكاح الواهبة نفسها، ومن الواجب عليه: وجوب التهجد

(١) الموافقات للشاطبي: ٢/ ١٠٨.

(٢) انظر في تقرير ذلك: كتاب قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة: ص ١٠٥، ١٠٦: لابن تيمية، والفتاوى له: ١٠/ ٤٠٩، والإحكام للآمدي: ١/ ٢٢٧، ٢٢٨، وانظر فعل ابن عمر في الإبانة الكبرى لابن بطة: ١/ ٢٤٠ - ٢٤٥.

(٣) انظر أفعال النبي ﷺ للأشقر: ١/ ٢٣٥، ٢٣٦.

وقيام الليل. ومن المحرَّم عليه: الأكل من الصدقة، وأكل ذي الرائحة الخبيثة كالثوم والبصل.

فهذه خصائص لا يشاركه فيها أحد ولا يُقتدىٰ ويتأسىٰ به فيها[١]؛ قال الشوكاني: «والحق أنه لا يُقتدىٰ به ﷺ فيما صرح لنا بأنه خاص به كائناً ما كان إلا بشرع يخصنا»[٢].

ويلحق بهذا ويرجع إليه: ما خص به رسول الله ﷺ بعض أصحابه دون بعض، كشهادة خزيمة التي جعلها النبي ﷺ تعدل شهادة رجلين، وأضحية أبي بردة الذي ضحىٰ بجذعة من المعز، وقال النبي ﷺ له: «اذبحها ولن تصلح لغيرك»[٣]، كما يلحق به ما خص به ﷺ أهل بيته - رضي الله عنهم - كالمنع من أكل الصدقة.

٣ - الأفعال التعبدية:

وهي الأفعال غير الجبلِّية وغير الخاصة التي يقصد بها التشريع، فهذه مطلوب الاقتداء والتأسي به ﷺ فيها، وهي الأصل في أفعال النبي ﷺ لقوله - تعالىٰ -: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...**﴾ [**الأحزاب**: ٢١]، إلا أن صفتها الشرعية تختلف من حيث الإيجاب أو الندب بحسب القرائن.

قواعد مهمة في الاتباع:

لتقرير ما سبق حول مفهوم الاتباع وحقيقته أذكر القواعد التالية:

(أ) إن مبنىٰ دين الإسلام علىٰ الوحي والنقل الصحيح لا العقل والاستنباط، فما جاءنا من أمر ونهي في كتاب الله - تعالىٰ - أو سنَّة رسوله ﷺ

---

(١) انظر الإحكام للآمدي: ١/ ٢٢٨.

(٢) إرشاد الفحول: ٣٥، ٣٦.

(٣) انظر: صحيح البخاري، رقم: ٢٨٠٧، ٥٥٥٦، الموافقات للشاطبي: ٢/ ٢٤٥، ٢٤٦.

وجب علينا قبوله والمبادرة إلى امتثاله فعـلاً أو تركاً.

ولذا كان السلف ـ رحمهم الله ـ يدورون مع النصوص حيث دارت، ويحكمون على الرجل بأنه على الطريق ما كان على الأثر(١). قال الزهري: «من الله الرسالة، وعلى الرسول ﷺ البلاغ، وعلينا التسليم»(٢).

وقال ابن أبي العز شارحاً قول الطحاوي: «(ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام): أي لا يثبت إسلام من لم يُسلِّم لنصوص الوحيين وينقاد إليها ولا يعترض عليها ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسه»(٣).

وما أجمل مقولة الخليفة الراشد علي ـ رضي الله عنه ـ حين قال: «إياكم والاستنان بالرجال؛ فإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة ثم ينقلب ـ لعلم الله فيه ـ فيعمل بعمل أهل النار فيموت وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فينقلب ـ لعلم الله فيه ـ فيعمل بعمل أهل الجنة فيموت وهو من أهل الجنة، فإن كنتم لا بد فاعلين فبالأموات لا بالأحياء. وأشار إلى الرسول ﷺ وأصحابه الكرام»(٤).

ومقولة أبي الزناد ـ رحمه الله ـ: «إن السنن ووجوه الحق لتأتي كثيراً على خلاف الرأي، فما يجد المسلمون بُدّاً من اتباعها، من ذلك: أن الحائض تقضي الصيام ولا تقضي الصلاة»(٥).

---

(١) انظر قول ابن سيرين بنحو من ذلك عند الدارمي رقم ١٤٠.
(٢) صحيح البخاري مع الفتح: ١٣/ ٥٠٤.
(٣) شرح العقيدة الطحاوية: ١/ ٢١٩.
(٤) الاعتصام للشاطبي: ٢/ ٣٥٨.
(٥) البخاري مع الفتح: ٤/ ١٩٢، قال ابن حجر: (وقول أبي الزناد: «إن السنن لتأتي كثيراً على خلاف الرأي» كأنه يشير إلى قول علي: «لو كان الدين بالرأي لكان باطن الخف أحق بالمسح من أعلاه»، أخرجه أحمد [١٢٦٧]، وأبو داود [١٦٢]، والدارقطني [١/ ١٩٩] ورجال إسناده ثقات. ونظائر ذلك في الشرعيات كثير).

(ب) يجب على المسلم البحث عن الحكم الشرعي والتثبت فيه قبل إتيان العمل في جميع شؤون حياته لقوله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»(١)، وتطبيق ذلك هو حقيقة الاتباع والتأسي برسول الله ﷺ، يقول الشاطبي حول ذلك: «كل من ابتغى في تكاليف الشريعة غير ما شرعت له فقد ناقض الشريعة، وكل من ناقضها فعمله في المناقضة باطل، فمن ابتغى في التكاليف ما لم تشرع له فعمله باطل»(٢).

(ج) المراد باتباع الرسول ﷺ العمل بكل ما جاء به من أوامر ونواهي في القرآن الكريم باعتباره وحياً من الله - تعالى - إليه ﷺ، والعمل بالسنَّة المطهرة؛ يقول ﷺ: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»(٣)، قال عطاء: «طاعة الرسول: اتباع الكتاب والسنَّة»(٤)، وقال العلامة السعدي: «وإن ما جاء به الرسول يتعين على العباد الأخذ به واتباعه ولا تحل مخالفته، وإن نص الرسول على حكم كنص الله - تعالى - لا رخصة لأحد ولا عذر في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله»(٥).

(د) ما تركه النبي ﷺ من جنس العبادات ولم يفعله مع وجود المقتضي لفعله على عهده ﷺ ففعله بدعة، وتركه سنة، كالاحتفال بالمولد وإحياء ليلة الإسراء والمعراج، والهجرة، ورأس السنة، ونحوها، يدل لذلك قول رسول الله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»(٦). يقول الإمام مالك - رحمه

---

(١) مسلم: ٣/ ١٣٤٣، رقم: ١٧١٨.
(٢) الموافقات: ٢/ ٣٣٣.
(٣) أحمد: ٤/ ١٣١: وصححه الألباني في صحيح الجامع: ١/ ٥١٦، رقم ٢٦٤٣.
(٤) الدارمي: ١/ ٧٧، رقم ٢٢٣.
(٥) تفسير السعدي: ٧/ ٣٣٣.
(٦) مسلم: ٣/ ١٣٤٤، رقم ١٧١٨.

الله ـ: «فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً»[(١)]، ويقول ابن تيمية: «والترك الراتب سنَّة، كما أن الفعل الراتب سنَّة»[(٢)] ويقول ابن كثير: «وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل أو قول لم يثبت عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ هو بدعة؛ لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه»[(٣)].

(هـ) كل ما يحتاجه الناس في أصول الدين وفروعه، في أمور الدنيا والآخرة من العبادات والمعاملات في السلم أو الحرب، في السياسة أو الاقتصاد... إلخ جاءت الشريعة ببيانه وإيضاحه؛ قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقال رجل من المشركين لسلمان الفارسي: قد علمكم نبيكم ﷺ كل شيء حتىٰ الخراءة، فقال: «أجل، لقد نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول..» الحديث[(٤)].

(و) أن الاتباع لا يتحقق إلا إذا كان العمل موافقاً للشرع في ستة أمور، هي:

١ ـ السبب: فإذا تعبد الإنسان لله ـ تعالىٰ ـ بعبادة مقرونة بسبب ليس شرعياً فهي بدعة مردودة علىٰ صاحبها، مثل إحياء ليلة السابع والعشرين من رجب بالتهجد يدَّعون أنها ليلة الإسراء والمعراج[(٥)]، فالتهجد في أصله عبادة، لكن لما

---

(١) الاعتصام للشاطبي: ١/ ٤٩.

(٢) الفتاوىٰ لابن تيمية: ٢٦/ ١٧٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤ / ١٥٦.

(٤) مسلم: ١/ ٢٢٣، رقم ٢٦٢، وانظر تفسير السعدي: ٤ / ٢٣٠، ٢٣١.

(٥) اختلف في تحديد ليلة الإسراء والمعراج علىٰ أقوال تزيد علىٰ العشرة، انظر: فتح الباري لابن حجر: ٧/ ٢٠٣. =

قرن بهذا السبب كان بدعة، لكونه بني على سبب لم يثبت شرعاً.

٢ ـ **الجنس**: فإذا تعبد الإنسان لله ـ تعالى ـ بعبادة لم يشرع جنسها فهي غير مقبولة، كالتضحية بفرس؛ لأن الأضاحي لا تكون إلا من جنس بهيمة الأنعام وهي الإبل ـ البقر ـ الغنم.

٣ ـ **القدْر**: فلو أراد إنسان أن يزيد صلاة على أنها فريضة أو ركعة في فريضة، فعمله ذلك بدعة مردودة؛ لأنها مخالفة للشرع في المقدار أو العدد.

٤ ـ **الكيفية**: فلو نكس إنسان الوضوء أو الصلاة لما صح وضوؤه ولا صلاته؛ لأن عمله مخالف للشرع في الكيفية.

٥ ـ **الزمان**: فلو ضحى إنسان في رجب، أو صام رمضان في شوال، أو وقف بعرفات في التاسع من ذي القعدة لما صح ذلك منه؛ لمخالفته للشرع في الزمان.

٦ ـ **المكان**: فلو اعتكف إنسان في منزله لا في المسجد، أو وقف يوم التاسع من ذي الحجة بمزدلفة لما صح ذلك منه؛ لمخالفته للشرع في المكان[1].

= وللشيخ ابن باز ـ رحمه الله ـ حول ذلك كلام نفيس إذ يقول: «وهذه الليلة التي حصل فيها الإسراء والمعراج لم يأت في الأحاديث الصحيحة تعيينها، وكل ما ورد في تعيينها فهو غير ثابت عن النبي ﷺ عند أهل العلم بالحديث، ولله الحكمة البالغة في إنساء الناس لها، ولو ثبت تعيينها لم يجز للمسلمين أن يخصوها بشيء من العبادات، فلم يجز لهم أن يحتفلوا بها؛ لأن النبي ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ لم يحتفلوا بها، ولم يخصوها بشيء، ولو كان الاحتفال أمراً مشروعاً لبينه الرسول ﷺ للأمة، إما بالقول أو الفعل، ولو وقع شيء من ذلك لعرف واشتهر ولنقله الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ إلينا، فقد نقلوا عن نبيهم ﷺ كل شيء تحتاجه الأمة، ولم يفرطوا في شيء من الدين، بل هم السابقون إلى كل خير، فلو كان الاحتفال بهذه الليلة مشروعاً لكانوا أسبق الناس إليه، والنبي ﷺ هو أنصح الناس للناس، وقد بلغ الرسالة غاية البلاغ وأدى الأمانة، فلو كان تعظيم هذه الليلة والاحتفال بها من دين الإسلام لم يغفله النبي ﷺ ولم يكتمه، فلما لم يقع شيء من ذلك علم أن الاحتفال بها وتعظيمها ليس من الإسلام في شيء». انظر: فتاوى اللجنة الدائمة: ٣/ ٦٥.

(١) انظر الإبداع في بيان كمال الشرع وخطر الابتداع لابن عثيمين: ٢١، ٢٢.

(ز) الأصل في العبادات بالنسبة للمكلف التعبد والامتثال دون الالتفات إلى الحِكَم والمعاني، وإن كانت ظاهرة في كثير منها. يقول الشيخ ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ مقرراً ذلك: «يجب أن نعلم أن ما أمر الله به ورسوله، أو نهى الله عنه ورسوله فهو الحكمة، فعلينا أن نُسلِّم، ونقول إذا سألنا أحد عن الحكمة في أمر من الأمور: إن الحكمة أَمْرُ الله ورسوله في المأمورات، ونَهْي الله ورسوله في المنهيات، ودليل ذلك من القرآن الكريم: قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وسئلت عائشة ـ رضي الله عنها ـ ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ فقالت: كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصيام ولا نؤمر بقضاء الصلاة»(١)، فاستدلت بالسنَّة ولم تذكر العلة، وهذا هو حقيقة التسليم والعبادة، أن تكون مسلِّماً لأمر الله ورسوله عرفت حكمته أم لم تعرف، ولو كان الإنسان لا يؤمن بالشيء حتى يعرف حكمته لقلنا: إنك ممن اتبع هواه فلا تمتثل إلا حيث ظهر لك أن الامتثال خير»(٢).

ولله در الفاروق عمر ـ رضي الله عنه ـ حين قال: «فيم الرَّمَلان والكشف عن المناكب وقد أطَّأ الله الإسلام، ونفى الكفر وأهله؟ مع ذلك لا ندع شيئاً كنا نفعله على عهد رسول الله ﷺ»(٣).

ولا يفهم أحد مما سبق أن البحث عن الحكَم والمعاني في العبادات التي دلت عليها القرائن ليس بمطلوب، كيف لا وقد ذكر الله ـ تعالى ـ ورسوله ﷺ شيئاً من ذلك مثل قول الله ـ تعالى ـ: ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**﴾ ﴿**لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾، وقول النبي ﷺ: «إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمي

---

(١) انظر البخاري مع الفتح: ١/ ٥٠١، رقم ٣٢١.

(٢) الشرح الممتع على زاد المستقنع: ٤/ ١٦٥، ١٦٦.

(٣) سنن أبي داود، رقم: ١٨٨٧، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم ٢٦٦٢: حسن صحيح.

الجمار لإقامة ذكر الله»(١)، ولكن المراد التحذير من التنطع في استخراجها، أو ربط القيام بالتنفيذ والعمل بمعرفتها، والأصل في العادات والمعاملات الالتفات إلىٰ المعاني والبحث عن الحِكَم، وإن كانت قد لا تظهر في أشياء منها(٢).

(ح) المشقة ليست مقصودة في الشريعة، ولذا قال رسول الله ﷺ للشيخ الذي نذر أن يمشي وكان يهادىٰ بين ابنيه: «إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغني»، وأمره أن يركب(٣)، قال العز بن عبد السلام مقرراً ذلك: «لا يصح التقرب بالمشاق؛ لأن القرب كلها تعظيم للرب ـ سبحانه وتعالىٰ ـ، وليس عين المشاق تعظيماً ولا توقيراً»(٤)، والمراد من العبد هو اجتناب النهي وامتثال الأمر بقدر الاستطاعة بدليل قوله ﷺ: «فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»(٥)، ومبنىٰ الشريعة والأصل فيها: التيسير ورفع الحرج عن العباد؛ بدليل قول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]، ولذا كان تفاوت الأجر والثواب مترتباً علىٰ تفاوت رتب الأعمال ومقدار شرفها، عظمت المشقة أو قلّت(٦).

ولكن لا شك أن المشقة ـ غير المقصودة ـ التي تلحق المكلف بسبب أدائه للعمل المشروع تزيد في ثوابه، قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ..﴾ [التوبة: ١٢٠]، وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: «كانت ديارنا نائية عن المسجد فأردنا أن نبيع بيوتنا فنقرب من المسجد فنهانا رسول

(١) سنن أبي داود رقم: ١٨٨٨، وحسنه الأرناؤوط في تخريجه لجامع الأصول رقم: ١٥٠٥.
(٢) راجع مبحث الشاطبي النفيس في ذلك في الموافقات: ٢/ ٣٠٠ـ٣١٠.
(٣) مسلم: ٣/ ١٢٦٣، رقم ١٦٤٢.
(٤) قواعد الأحكام في مصالح الأنام: ١/ ٣٠.
(٥) البخاري مع الفتح: ١٣/ ٢٦٤، رقم ٧٢٨٨.
(٦) انظر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام: ١/ ٢٩، ٣٠.

الله ﷺ فقال: «إن لكم بكل خطوة درجة»(١)، وقال رسول الله ﷺ لعائشة - حين قالت: يا رسول الله، يصدر الناس بنُسكين وأصدر بنُسك؟ -: انتظري، فإذا طهرت فاخرجي إلى التنعيم فأهِلّي ثم ائتينا بمكان كذا، ولكنها على قدر نفقتك أو نصبك»(٢).

يقول العز بن عبد السلام في كلام له نفيس حول ذلك: «إن قيل: ما ضابط الفعل الشاق الذي يؤجر عليه أكثر مما يؤجر على الخفيف؟ قلت: إذا اتحد الفعلان في الشرف والشرائط والسند والأركان وكان أحدهما شاقاً فقد استويا في أجرهما؛ لاستوائهما في جميع الوظائف وانفرد أحدهما بتحمل المشقة لأجل الله - تعالى - فأثيب على تحمل المشقة لا على عين المشاق»(٣).

منزلة الاتباع في الشريعة:

للاتباع منزلة عظيمة في الشريعة الإسلامية، ويتضح ذلك من خلال ما يلي:

١ - الاتباع شرط لقبول العبادات:

لا قبول لعمل من الأعمال العبادية إلا بالاتباع والموافقة لما جاء به محمد ﷺ، بل إن الأعمال التي تُعمل بلا اتباع وتأسٍّ لا تزيد عاملها من الله إلا بعداً؛ وذلك لأن الله - تعالى - إنما يعبد بأمره الذي بعث به رسوله ﷺ لا بالآراء والأهواء؛ قال رسول الله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»، قال الحسن البصري: «لا يصح القول إلا بعمل، ولا يصح قول وعمل إلا بنيَّة، ولا يصح قول وعمل ونية إلا بالسنَّة»(٤)، ويقول ابن رجب: «فكما أن كل عمل لا يراد به وجه الله - تعالى - فليس لعامله فيه ثواب؛ فكذلك كل عمل لا يكون

---

(١) مسلم: ١/ ٤٦١، رقم ٦٦٤.

(٢) البخاري مع الفتح: ٣/ ٧١٤، رقم ١٧٨٧.

(٣) قواعد الأحكام في مصالح الأنام: ١/ ٣٠.

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي: ١/ ٥٧، رقم: ١٨.

عليه أمر الله ورسوله فهو مردود على عامله، وكل من أحدث في الدين ما لم يأذن به الله ورسوله فليس من الدين في شيء»(١).

٢ ـ الاتباع أحد أصلي الإسلام الأساسين:

الإخلاص وإفراد الله بالعبادة هو حقيقة إيمان العبد وشهادته بأن لا إله إلا الله، والاتباع والتأسي برسول الله ﷺ هو حقيقة إيمان العبد وشهادته بأن محمداً رسول الله، فلا يتحقق إسلام عبد ولا يقبل منه قول ولا عمل ولا اعتقاد إلا إذا حقق هذين الأصلين (الإخلاص ـ الاتباع)، وأتى بمقتضاهما؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ [**الكهف**: ١١٠]، يقول ابن تيمية: «وبالجملة فمعنا أصلان عظيمان، أحدهما: ألا نعبد إلا الله، والثاني: ألا نعبده إلا بما شرع، لا نعبده بعبادة مبتدعة، وهذان الأصلان هما تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»(٢)، ويقول ابن القيم: «فلا يكون العبد متحققاً بـ ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ [**الفاتحة**: ٥] إلا بأصلين عظيمين: أحدهما: متابعة الرسول ﷺ، والثاني: الإخلاص للمعبود»(٣).

ويقول ابن أبي العز الحنفي: «فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المُرْسِل، وتوحيد متابعة الرسول ﷺ»(٤).

٣ ـ الاتباع سبب لدخول الجنة:

ويدل لذلك قوله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»(٥)، وقال

---

(١) جامع العلوم والحكم: ١/ ١٧٦.
(٢) الفتاوى: ١/ ٣٣٣ـ ٣٣٤.
(٣) مدارج السالكين: ١/ ١٠٤.
(٤) شرح الطحاوية: ١/ ٢٢٨.
(٥) البخاري مع الفتح: ١٣/ ٢٦٣، رقم ٧٢٨٠.

ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] : «فأما الذين ابيضت وجوههم فأهل السنة والجماعة وأولو العلم، وأما الذين اسودت وجوههم فأهل البدع والضلالة»(١).

وقال الزهري ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «الاعتصام بالسنة نجاة»(٢).

٤ ـ الاتباع دليل محبة الله تعالى :

ويدل لذلك قول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]؛ يقول ابن تيمية: «ومما ينبغي التفطن له أن الله ـ سبحانه ـ قال في كتابه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ...﴾، قال طائفة من السلف: ادعىٰ قوم علىٰ عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ...﴾ الآية، فبيَّن ـ سبحانه ـ أن محبته توجب اتباع الرسول ﷺ، وأن اتباع الرسول ﷺ يوجب محبة الله للعبد، وهذه محبة امتحن الله بها أهل دعوىٰ محبة الله؛ فإن هذا الباب تكثر فيها الدعاوىٰ والاشتباه»(٣)، ويقول ابن كثير: «هذه الآية حاكمة علىٰ كل من ادعىٰ محبة الله وليس هو علىٰ الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتىٰ يتبع الشرع المحمدي والدين المحمدي في جميع أقواله وأفعاله»(٤).

وقال ابن القيم: «﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ إشارة إلىٰ دليل المحبة وثمرتها وفائدتها؛ فدليلها وعلامتها اتباع الرسول، وفائدتها وثمرتها محبة المرسِل لكم، فما لم تحصل المتابعة فليست محبتكم له حاصلة، ومحبته لكم منتفية»(٥).

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي، ١/ ٧١، رقم: ٧٤.
(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي: ١/ ٥٦، رقم ١٥.
(٣) الفتاوىٰ لابن تيمية: ١٠/ ٨١.
(٤) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٣٥٨.
(٥) مدارج السالكين: ٣/ ٢٢.

ويقول: «ثباتها - أي محبة الله - إنما يكون بمتابعة الرسول في أعماله وأقواله وأخلاقه، فبحسب هذا الاتباع يكون منشأ هذه المحبة وثباتها وقوتها، وبحسب نقصانها يكون نقصانها»[١].

٥ - الاتباع طريق تحصيل محبة رسول الله ﷺ على الحقيقة:

أوجب الله - تعالىٰ - علىٰ عباده محبة رسوله ﷺ، وتقديم ذلك علىٰ محبة النفس والمال والولد والوالد والناس أجمعين؛ كما في الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[٢]، وقوله ﷺ لعمر بن الخطاب، حين قال: يا رسول الله، لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال ﷺ: «لا والذي نفسي بيده حتىٰ أكون أحب إليك من نفسك»، فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إليَّ من نفسي، فقال ﷺ: «الآن يا عمر»[٣].

ولا سبيل لتحصيل تلك المحبة للنبي ﷺ وتحقيقها إلا عن طريق الاتباع والحرص علىٰ الكمال فيه؛ يقول الخطابي حول هذا المعنىٰ: «لم يُرد به حب الطبع بل أراد به حب الاختيار؛ لأن حب الإنسان لنفسه طبع ولا سبيل إلىٰ قلبه، قال: فمعناه: لا تَصْدُق في حبي حتىٰ تفني في طاعتي نفسَك، وتؤثر رضاي علىٰ هواك وإن كان فيه هلاكك»[٤].

٦ - الاتباع سبيل امتثال الأوامر بطاعة الرسول ﷺ، وتجنب الوعيد المترتب على ذلك:

أمر الله عباده بطاعة نبيه في آيات كثيرة، منها قوله - تعالىٰ -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

(١) مدارج السالكين: ٣/ ٣٧.
(٢) البخاري مع الفتح: ١/ ٧٥، رقم ١٥.
(٣) البخاري مع الفتح: ١١/ ٥٣٢، رقم ٦٦٣٢.
(٤) انظر شرح النووي لمسلم: ٢/ ١٥.

آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ...﴾ [النساء: ٥٩] ورتب الوعيد الشديد على مخالفته، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ولا سبيل للعبد إلى امتثال تلك الأوامر بطاعة الرسول ﷺ والاستجابة له وتجنب الوعيد الشديد على ذلك دنيا وآخرة إلا بالاتباع للنبي ﷺ والتأسي به.

٧ ـ الاتباع من صفات المؤمنين اللازمة لهم:

ويدل لذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥١ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥١، ٥٢]، وقد نفى الله ـ سبحانه وتعالى ـ الإيمان عمن أعرض عن طاعة الرسول ﷺ ولم يرض بحكمه؛ فقال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

٨ ـ الاتباع علامة من علامات التقوى:

اتباع النبي ﷺ من علامات ودلائل تقوى القلب وصحة إيمانه؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] وشعائر الله: أوامره وأعلام دينه الظاهرة، ومن أبرزها وأعلاها طاعة النبي ﷺ واتباع شرعه(١).

حكم الاتباع:

اتباع الرسول ﷺ والتأسي به فيما جاء به من ربه من الأمور المستقرة، والتي

(١) انظر تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٢١٩، وتفسير السعدي: ٥/ ٢٩٣.

لا يسع أحد الجهل بها؛ لأنها من المعلوم من الدين بالضرورة؛ نظراً لتواتر النصوص الدالة على ذلك واستفاضتها، ومن ذلك:

١ - قول الله - تعالى -: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ...﴾ [الحشر: ٧]، قال ابن كثير في تفسيره: «أي مهما أمركم به فافعلوه، وما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير، وإنما ينهى عن شر»[١].

وقال الشوكاني بعد إيراده لبعض الأقوال التي قد يفهم منها أن الآية خاصة بالفيء: «والحق أن هذه الآية عامة في كل شيء يأتي به رسول الله ﷺ من أمر أو نهي أو قول أو فعل، وإن كان السبب خاصاً فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وكل شيء أتانا به من الشرع فقد أعطانا إياه وأوصله إلينا، وما أنفع هذه الآية وأكثر فائدتها»[٢].

٢ - قول الله - تعالى -: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «يقسم - تعالى - بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكِّم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم، فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن، فيسلموا لذلك تسليماً كلياً، من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة»[٣].

ويقول العلامة السعدي: «ثم أقسم - تعالى - بنفسه الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: في كل شيء يحصل فيه اختلاف»[٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٣٣٦.

(٢) فتح القدير: ٥/ ٢٨٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٥٢٠.

(٤) تفسير السعدي: ٢/ ٩٣.

٣ ـ قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، قال ابن كثير: «وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي: عن أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنّته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله فما وافق ذلك قُبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله، كائناً ما كان»(١).

٤ ـ عن العرباض بن سارية ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ وعظ الناس فقالوا: يا رسول الله، إن هذه لموعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ قال: «قد تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»(٢).

٥ ـ عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «فمن رغب عن سنتي فليس مني»(٣)، قال ابن حجر في شرحه له: «المراد بالسنّة الطريقة، لا التي تقابل الفرض، والرغبة عن الشيء الإعراض عنه إلى غيره، والمراد: من ترك طريقتي وأخذ بطريقة غيري فليس مني»(٤).

أحوال الناس والاتباع:

يختلف حال الناس في الاتباع من شخص لآخر، إذ لا يخلو حال أحد منهم من أربعة أحوال: فمنهم من يمتثل المأمور ويكف عن اقتراف المحظور، وهذا أكمل أحوال أهل الدين، وأفضل صفات المتقين، وهو الذي يستحق جزاء العاملين وثواب المطيعين.

ومنهم من لا يمتثل المأمور ويقترف المحظور، وهذا أخبث أحوال المكلفين،

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٠٧.
(٢) ابن ماجه: ١/ ١٦، رقم ٤٣: وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه: ١/ ١٣، رقم ٤١.
(٣) البخاري مع الفتح: ٩/ ٥، رقم ٥٠٦٣.
(٤) فتح الباري: ٩/ ٧.

وشر صفات المتعبدين، وهو الذي يستحق عذاب اللاهي عن فعل ما أمر به من الطاعات، وعذاب المُقْدِم على ارتكاب المنهيات، قال ابن شبرمة: «عجبت لمن يحتمي من الطيبات مخافة الداء كيف لا يحتمي من المعاصي مخافة النار».

ومنهم من يمتثل المأمور ويقترف المحظور، وهو الذي يستحق عذاب المجترئ على انتهاك الحرمات وتجاوز الحدود؛ لأنه تورط بغلبة الشهوة على الإقدام على المعصية، وإن سلم من التقصير في فعل الطاعة.

ومنهم من لا يمتثل المأمور ولا يقترف المحظور، فهذا يستحق عذاب ترك الطاعات والغفلة عن القربات(١).

مظاهر الاتباع:

للاتباع مظاهر كثيرة، من أهمها وأبرزها:

١ ـ تعظيم النصوص الشرعية:

من أبرز مظاهر الاتباع ودلائله تعظيم النصوص الشرعية الثابتة بتقديرها وإجلالها، وتقديمها وعدم هجرها، واعتقاد أن الهدى فيها لا في غيرها، وتعلمها وفهمها وتدبرها والعمل بها والتحاكم إليها وعدم معارضتها، وقد كان هذا هو هدي أئمة الاتباع وسادته من الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم.

فقد رأى عبد الله بن مغفل رجلاً من أصحابه يخذف، فقال له: لا تخذف، فإن رسول الله ﷺ كان ينهى عن الخذف، وكان يكرهه، ثم رآه بعد ذلك يخذف، فقال له: ألم أخبرك أن رسول الله ﷺ كان ينهى عنه؟ ثم أراك تخذف؟ والله لا أكلمك أبداً»(٢)، وقال خراش بن جبير: «رأيت في المسجد فتى

---

(١) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردي: ١٠٣ ـ ١٠٥، نضرة النعيم، لمجموعة من الباحثين: ٧/ ٢٦٧٣.

(٢) صحيح مسلم، رقم: ١٩٥٤، سنن الدارمي: ١/ ١٢٤، رقم ٤٤٦، واللفظ له.

يخذف، فقال له شيخ: لا تخذف؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ نهىٰ عن الخذف، فغفل الفتىٰ فظن أن الشيخ لا يفطن له، فخذف فقال له الشيخ: أحدثك أني سمعت رسول الله ﷺ ينهىٰ عن الخذف ثم تخذف، والله لا أشهد لك جنازة، ولا أعودك في مرض، ولا أكلمك أبداً»[١].

وحدث ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «إذا استأذنت أحدكم امرأته إلىٰ المسجد فلا يمنعها» فقال أحد بنيه: إذن والله أمنعها، فأقبل عليه ابن عمر فشتمه شتيمة لم يشتمها أحداً قبله قط، ثم قال: أُحدِّث عن رسول الله ﷺ وتقول: إذن والله أمنعها!»[٢].

وقال أبو هريرة - رضي الله عنه -: «حرَّم رسول الله ﷺ ما بين لابتيها. قال: يريد المدينة، قال: فلو وجدت الظباء ساكنة ما ذعرتها»[٣].

وذكر عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ نهىٰ عن درهمين بدرهم. فقال فلان: ما أرىٰ بهذا بأساً يداً بيد. فقال عبادة: أقول: قال النبي ﷺ وتقول: لا أرىٰ به بأساً، والله لا يظلني وإياك سقف واحد»[٤].

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: تمتع النبي ﷺ فقال عروة بن الزبير: نهىٰ أبو بكر وعمر عن المتعة، فقال ابن عباس: «أراهم سيهلكون أقول: قال النبي ﷺ ويقولون: نهىٰ أبو بكر وعمر»[٥]. وحدَّث ابن سيرين رجلاً بحديث عن النبي ﷺ فقال رجل: قال فلان وفلان كذا، فقال ابن سيرين: «أُحدِّثك عن النبي ﷺ وتقول: قال فلان وفلان كذا وكذا؟ والله لا أكلمك

---

(١) سنن الدارمي: ١/ ١٢٧، رقم: ٤٣٨.

(٢) سنن الدارمي: ١/ ١٢٤، رقم ٤٤٨.

(٣) صحيح البخاري، رقم: ٩٩٤٤، ومعنىٰ: ذعرتها: أفزعتها.

(٤) سنن الدارمي: ١/ ١٢٩، رقم: ٤٤٣.

(٥) جامع بيان العلم وفضله: ٢/ ١٢١٠، رقم ٢٣٨١.

أبداً»[١] . وقال الشعبي لرجل : «ما حدَّثوك هؤلاء عن رسول الله ﷺ فخذ به ، وما قالوه برأيهم فألقه في الحش»[٢] .

٢ ـ الخوف من الزيغ والاستدراج :

من أبرز علامات الاتباع ومظاهره : خوف العبد من انحرافه وذنوبه ، وخشيته من استدراجه وعدم ثباته على الحق الذي جاء به محمد ﷺ، وقد كان ذلك واضحاً جليّاً لدى الصحابة والتابعين رضي الله عنهم .

يقول ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مصوراً الأمر : «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرَّ على أنفه فقال به هكذا»[٣] .

ويقول الحسن البصري : «المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف ، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن»[٤] .

قال البخاري : «قال إبراهيم التيمي : ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذباً . وقال ابن أبي مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل . ويذكر عن الحسن : ما خافه إلا مؤمن ، ولا أمنه إلا منافق»[٥] .

بل إن أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر الصديق كان يقول : «لست تاركًا شيئاً كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به ، وإني لأخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ ! » ، وقد عقب ابن بطة على كلمة الصديق تلك فقال : «هذا ـ يا إخواني ـ الصديق الأكبر يتخوف على نفسه من الزيغ إن هو خالف شيئاً من أمر

(١) الدارمي : ١/ ١٢٤ ، رقم ٢٤٧ .
(٢) الدارمي : ١/ ٧٢ ، رقم ٢٠٤ .
(٣) صحيح البخاري : ٦٣٠٨ .
(٤) تفسير ابن كثير : ٢/ ٢٣٥ .
(٥) البخاري مع الفتح : ١/ ١٣٥ .

نبيه ﷺ، فماذا عسى أن يكون من زمان أضحى أهله يستهزئون بنبيهم وأوامره ويتباهون بمخالفته ويسخرون بسنَّته؟! نسأل الله عصمةً من الزلل، ونجاةً من سوء العمل»(١).

٣ ـ الاقتداء بالنبي ﷺ والتأسي به ظاهراً وباطناً:

بحيث يجرد العبد متابعته لرسول الله ﷺ ويكتفي بالتلقي والأخذ عنه، والعمل بما جاء به عملاً بقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ فلا اعتقاد ولا عبادة ولا معاملة ولا خلق ولا أدب ولا نظام اجتماعي ولا اقتصادي أو سياسي . . . إلخ إلا عن طريقه، وعلى وفق ما جاء به من أحكام وتعاليم في الكتاب الكريم والسنَّة الصحيحة، بحيث تكون شريعته هي المهيمنة والرائدة. يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كلام له عن قوله ـ تعالى ـ: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]: «وهو دليل على أن من لم يكن الرسول أولى به من نفسه فليس من المؤمنين، وهذه الأولوية تتضمن أموراً منها أن لا يكون للعبد حكم على نفسه أصلاً بل الحكم على نفسه للرسول ﷺ يحكم عليها أعظم من حكم السيد على عبده أو الوالد على ولده، فليس له على نفسه تصرف قط إلا ما تصرف فيه الرسول الذي هو أولى به منها»(٢).

٤ ـ تحكيم العبد للشرع وتحاكمه إليه:

بحيث يُحَكِّم ما جاء به الرسول ﷺ في الكتاب والسنَّة ويتحاكم إليهما، ويجعل ذلك هو الميزان الذي يزن بواسطته الاعتقادات والأقوال والأفعال والتروك، فما وافقها قبله وعمل بما فيه، وما خالفه رده وإن جاء به من جاء.

---

(١) انظر كلمة الصديق في البخاري رقم: ٣٠٩٣، وتعقيب ابن بطة في الإبانة الكبرى: ١/ ٢٤٥، ٢٤٦.

(٢) بدائع التفسير الجامع لتفسير ابن القيم: ٣/ ٤٢٢.

قال الله - تعالىٰ -: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]، وقال - عز وجل -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩]. وتحكيم العبد وتحاكمه إلىٰ الشريعة وحرصه علىٰ أن تكون جميع شؤونه خاضعة لها: هو السمة البارزة والعلامة الفارقة بين المسلم الحريص علىٰ الاتباع للحق، وبين من اتبع هواه بغير هدىٰ من الله فضلّ وأضل، سواء أُسمِّي ذلك الهوىٰ عقلاً أم ذوقًا أم مصلحة أم إماماً أم حزباً أم نظاماً . . إلخ.

٥ - الرضا بحكم رسول الله ﷺ وشرعه:

من مظاهر الاتباع للرسول ﷺ الرضىٰ بحكمه وشرعه، عن العباس - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً»(١).

فإذا رضي المسلم بمحمد ﷺ نبيّاً ورسولاً: لم يلتفت إلىٰ غير هديه، ولم يُعوِّل في سلوكه علىٰ غير سنَّته، وحَكَّمَه وحاكم إليه، وقبل حكمه وانقاد له وتابعه واتَّبَعَه، ورضي بكل ما جاء به من عند ربه، فيسكن قلبه لذلك، وتطمئن نفسه، وينشرح صدره، ويرىٰ نعمة الله عليه وعلىٰ الخلق بهذا النبي الكريم ﷺ، وبدينه العظيم أيما نعمة، فيفرح بفضل ربه عليه ورحمته له بذلك؛ حيث جعله من أتباع خير المرسلين وحزبه المفلحين؛ قال الله - تعالىٰ -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨].

والرضا كلمة تجمع القبول والانقياد؛ فلا يكون الرضا إلا حيث يكون التسليم المطلق والانقياد الكامل ظاهراً وباطناً لما جاء به الرسول ﷺ من ربه(٢).

---

(١) مسلم: ١/ ٦٢، رقم ٣٤.

(٢) انظر: الضوء المنير علىٰ التفسير، للصالحي: ٢/ ٢٥٣، ٢٥٤.

الوسائل المعينة على الاتباع:

الوسائل المعينة على اتباع النبي ﷺ كثيرة، من أهمها:

١ ـ تقوى الله ـ عز وجل ـ والخوف منه:

وذلك لأن من اتقى الله ـ عز وجل ـ وخافه جعل له فرقاناً، يميز به بين الحق والباطل، وبين النور والظلمة؛ فكان ذلك سبب نجاته وسعادته في الدنيا والآخرة؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ..**﴾ [**الأنفال**: ٢٩]، وقال ـ عز وجل ـ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [**الحديد**: ٢٨]، قال السعدي في معنى قوله: ﴿**يَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ**﴾ أي: «يعطيكم علماً وهدىً ونوراً تمشون به في ظلمات الجهل»(١).

وقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ [**الأنفال**: ٢].

٢ ـ الإخلاص لله، والتجرد في طلب الحق:

لا يتوقف البحث عن الحق وتطلبه على الحرص على معرفته وإدراكه فقط، بل لا بد مع ذلك من أمر نفسي هو التجرد، والحرص على سلامة القصد والممارسة من الجهل والهوى والظلم، ولا يكون ذلك إلا بالإخلاص لله تعالى.

وهذا الأمر له تعلق بتنقية النفوس من الأهواء والشوائب وتزكيتها؛ لأن العبد كلما سعى في تنقية نفسه وتزكيتها وإلزامها بطاعة الله ـ تعالى ـ وترك معصيته ظاهراً وباطناً، كلما ازداد قبوله للحق وإقباله عليه؛ يقول ابن تيمية: «وكذلك من أعرض عن اتباع الحق ـ الذي يعلمه ـ تبعاً لهواه، فإن ذلك يورثه الجهل والضلال حتى يعمي قلبه عن الحق الواضح، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ [**الصف**: ٥] وقال ـ تعالى ـ:

---

(١) تفسير السعدي: ٧/ ٣٠٥.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] . . »(١).

والتجرد والإخلاص معينان للعبد على الرجوع عن البدع والأخطاء متى وقع فيها، وقد حصل ذلك من أعيان كبار في علم الكلام والفلسفة وغير ذلك، كأبي الحسن الأشعري، والجويني، والغزالي، والفخر الرازي، وغيرهم كثير.

٣ ـ اللجوء والتضرع إلى الله ـ عز وجل ـ وإظهار الافتقار له:

من أعظم الأسباب المعينة للعبد على الاتباع لما جاء به نبينا محمد ﷺ من الهدى والنور: لجوء العبد إلى ربه وتضرعه بين يديه وإظهار الافتقار والحاجة إليه، ولقد كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يفعل ذلك، فقد كان دعاؤه حين يفتتح الصلاة من الليل: «اللهم ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»(٢).

وكان من دعائه أيضاً: «اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً»(٣). وأيضاً: «اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أُضَل، أو أزل أو أُزل . . . »(٤)، وأيضاً: «اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رهبة ورغبة إليك، لا ملجأ منك إلا إليك . . »(٥).

وقد أمر الله ـ تعالى ـ عباده بدعائه والتضرع بين يديه، فقال ـ عز وجل ـ:

---

(١) الفتاوى لابن تيمية: ١٠/ ١٠.

(٢) مسلم: ١/ ٥٣٤، رقم ٧٧٠.

(٣) ابن ماجه: ١/ ٩٢، رقم ٢٥١، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه: ١/ ٤٧، رقم ٢٠٣.

(٤) أبو داود: ٥/ ٣٢٧، رقم ٥٠٩٤، وصححه الألباني في صحيح أبي داود: ٣/ ٩٥٩، رقم ٤٢٤٨.

(٥) أبو داود: ٥/ ٢٩٨، رقم ٥٠٦، وصححه الألباني في صحيح أبي داود: ٣/ ٩٥٢، رقم ٤٢١٩.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] وأخبر النبي ﷺ أن من لم يسأل الله ـ تعالىٰ ـ ويظهر الافتقار والحاجة إليه فإنه يغضب عليه، ففي الحديث الذي يرويه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه»(١).

٤ ـ تعلم الأحكام الشرعية:

وذلك لأن الإسلام دين مبني علىٰ الوحي، والوحي لا يدرك إلا بالتعلم، وبالتالي: لا وسيلة للعمل بأحكام الإسلام واتباع النبي ﷺ إلا عن طريق التعلم لما جاء عنه في القرآن والسنة؛ لأنه من غير الممكن أن يعمل الإنسان بشيء لا يعرفه ولم يتعلمه، ولذا: قال الإمام البخاري في صحيحه: «باب العلم قبل القول والعمل، لقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾، فبدأ بالعلم»(٢).

وكان أول ما أُنْزِل من القرآن الكريم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]. والقراءة أداة للتعلم.

٥ ـ فهم النصوص الصحيحة وتدبر معانيها:

القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة هما مصدر تلقي الحق والهدىٰ؛ قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] وقال ﷺ: «إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنّتي، ولن يتفرقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض»(٣).

ولقد تكفل الله ـ تعالىٰ ـ بحفظ نصوص كتابه من أن يدخلها تحريف أو تبديل؛ قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]،

---

(١) الترمذي: ٥/ ٥٦، رقم/ ٣٣٧٣، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي: ٣/ ١٣٨، رقم ٢٦٨٦.

(٢) البخاري مع الفتح: ١/ ١٩٢.

(٣) المستدرك للحاكم: ١/ ٩٣، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ١/ ٥٦٦، رقم ٢٩٣٧.

ويتضمن ذلك حفظ سنَّة النبي ﷺ التي على الرغم مما دخلها من أحاديث ضعيفة وموضوعة، إلا أن الله ـ تعالىٰ ـ هيأ لها أئمة نذروا أنفسهم وأعمارهم في خدمتها وتمييز صحيحها من ضعيفها وموضوعها، ولذا فإنه لا بد للحريص على الاتباع الحق للنبي ﷺ من الحرص على صحة النصوص التي يعمل بها، والقيام بفهمها وتدبرها، ومن ثم العمل بموجبها فعلاً وتركاً.

يقول الشيخ السعدي في تفسيره لقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] «أي: فهلا يتدبر هؤلاء المعرضون كتاب الله، ويتأملونه حق التأمل، فإنهم لو تدبروه لدلَّهم على كل خير، ولحذرهم من كل شر، ولملأ قلوبهم من الإيمان وأفئدتهم من الإيقان، ولأوصلهم إلى المطالب العالية والمواهب الغالية، ولبين لهم الطريق الموصلة إلى الله، وإلى جنته ومكملاتها ومفسداتها، والطريق الموصلة إلى العذاب، وبأي شيء يُحذر، ولعرَّفهم بربهم بأسمائه وصفاته، وإحسانه، ولشوَّقهم إلى الثواب الجزيل، ورهَّبهم من العقاب الوبيل.

﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ أي: قد أغلق على ما فيها من الإعراض والغفلة والاعتراض، وأقفلت فلا يدخلها خير أبداً! هذا هو الواقع»(١).

قلت: والعائد من تدبر النصوص النبوية الصحيحة كالعائد من تدبر النصوص القرآنية؛ لأن كلاً منهما مصدر للأحكام، وطريق للاعتصام بالحق، والأمن من الزيغ والضلال.

٦ ـ اتباع طريقة السلف في العلم والعمل:

بيَّن النبي ﷺ أن خير قرون هذه الأمة وأفضلها: أقربها إليه، فقال: «خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم..»(٢) وأوضح في حديث الافتراق

---

(١) تفسير السعدي: ٧/ ٨٠.

(٢) البخاري مع الفتح: ٥/ ٣٠٦، رقم ٢٦٥١.

أن هذه الأمة تفترق على ثلاث وسبعين ملة، كلها في النار إلا ملة واحدة، قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»(١).

ولقد بدأ خط الانحراف يدخل في أوساط المسلمين ابتداءً من نهاية دولة الخلافة الراشدة، واستمر يتسع ويزداد، وبالتالي بدأت تقل أعداد المستمسكين بالحق الخالص الذي كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته والداعين إليه، قرناً بعد قرن وزماناً بعد آخر، حتى صار القابض عليه في بعض الأماكن والأزمان كالقابض على الجمر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولذا فلا طريق لمن أراد أن يستمسك بدينه، ويتبع رسول الله ﷺ اتباعاً نقياً صحيحاً، إلا أن يضبط فهمه للنصوص الصحيحة واستيعابه لها، وعمله على تنفيذها، بالطريقة التي كان عليها رسول الله ﷺ وصحابته، ومن جاء بعدهم ممن سار على نهجهم، حذو القذة بالقذة؛ نظراً لكون النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى قد حدد أن الحق هو ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه الكرام، ونظراً لقلة العلم وكثرة الأهواء في الأزمنة التي جاءت بعده، فقد ازدادت الحاجة إلى معرفة طريقة السلف والعمل بها.

وما أحسن قول عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ حيث قال: «من كان مستناً فليستن بمن قد مات فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم، فإنهم كانوا على الهدي المستقيم»(٢).

---

(١) الترمذي: ٥/ ٦، رقم ٢٦٤١، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي: ٢/ ٣٣٤، رقم ٢١٢٩.
(٢) شرح الطحاوية: ٢/ ٥٤٦.

٧ ـ الصحبة الصالحة :

صحبة أهل السنة والجماعة الملتزمين بما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته من أعظم الأسباب التي تعين على الاتباع والاستمساك بالحق ؛ وذلك لأن الصاحب ساحب للمرء وقائد، قال رسول الله ﷺ : «الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»(١).

وسبب ذلك : أن الخليل يحمل صاحبه على ما هو عليه، فإن كان صاحب سنَّة واتباع حمله على ذلك، وإن كان صاحب بدعة وفسوق حمله على ذلك، ولذا : قال رسول الله ﷺ : «مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك : إما أن يُحذِيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير : إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة»(٢).

ومما يدل على تأثير الصحبة دلالة واقعية قول يوسف بن أسباط : «كان أبي قدرياً، وأخوالي روافض، فأنقذني الله بسفيان»(٣).

ولذا استفاضت أقوال السلف في الحث على صحبة أهل الاتباع والسنَّة وترك صحبة ما سواهم. ومن أقوالهم في ذلك : عن أيوب قال : «إن من سعادة الحدث والأعجمي أن يوفقهما الله لعالم من أهل السنَّة»(٤).

وعن عبد الله بن شوذب قال : «إن من نعمة الله على الشاب إذا نسك أن يواخي صاحب سنَّة يحمله عليها»(٥).

---

(١) أبو داود : ٥/ ١٦٨، رقم ٤٨٣٣، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود : ٣/ ٩١٧، رقم ٤٠٤٦.
(٢) البخاري مع الفتح : ٩/ ٥٧٧، رقم ٥٥٣٤.
(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي : ١/ ٦٠، رقم ٣٢.
(٤) المصدر السابق : ١/ ٦٠، رقم ٣٠.
(٥) المصدر السابق : ١/ ٦٠، رقم ٣١.

ويقول الملائي: «إذا رأيت الشاب أول ما ينشأ مع أهل السنة والجماعة فارجه، وإذا رأيته مع أهل البدع فايئس منه؛ فإن الشباب على أول نشوئه»[(١)].

ويقول ابن عباس - رضي الله عنهما - محذراً: «لا تجالس أهل الأهواء فإن مجالستهم ممرضة للقلب»[(٢)]، ويقول أبو قلابة: «لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم؛ فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، أو يلبسوا عليكم ما تعرفون»[(٣)].

عوائق الاتباع:

هناك عوائق كثيرة تمنع العبد من الاتباع الصحيح للنبي ﷺ، من أبرزها:

١ - الجهل:

الجهل من أعظم عوائق الاتباع، بل هو أعظم أسباب الوقوع في المحرمات جميعها من كفر وبدع ومعاصٍ[(٤)]، سواء أكان الجهل جهلاً بالنصوص بعدم الاطلاع عليها، أم كان جهلاً بمنزلتها في الدين - وكون التقدمة لها وبقية المصادر تبعاً لها - ، أم كان جهلاً بدلالات الألفاظ، ومقاصد الشريعة، وقواعد العلوم وأصولها: كالمطلق والمقيد، والعام والخاص، والناسخ والمنسوخ، والمجمل والمبين[(٥)].

ونظراً لخطورة الجهل الكبيرة نجد القرآن الكريم والسنَّة الصحيحة حافلين بالنصوص التي تحذر من الجهل وتبين خطورته، وتحث على العلم وتبين فضله، ومنها:

---

(١) الإبانة الكبرى لابن بطة: ١/ ٢٠٥، رقم ٣٣.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٤٣٨، رقم ٣٧١.

(٣) المصدر السابق: ٢/ ٤٣٧، رقم ٣٦٩.

(٤) انظر: الفتاوى لابن تيمية: ١٤/ ٢٢.

(٥) انظر: حقيقة البدعة وأحكامها للغامدي: ١/ ١٧٧، ١٧٨.

قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، يقول السعدي: « ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه»(١)، ويقول ابن القيم: «وأما القول على الله بلا علم فهو أشد هذه المحرمات وأعظمها إثماً؛ ولهذا ذُكِر في المرتبة الرابعة من المحرمات التي اتفقت عليها الشرائع والأديان ولا تباح بحال، بل لا تكون إلا محرمة، ثم انتقل منه إلىٰ ما هو أعظم منه، فقال: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾، فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثماً، فإنه يتضمن الكذب على الله ونسبته إلىٰ ما لا يليق به، وتغيير دينه وتبديله، ونفي ما أثبته، وإثبات ما نفاه، وتحقيق ما أبطله، وإبطال ما حققه، وعداوة من والاه، وموالاة من عاداه، وحب ما أبغضه، وبغض ما أحبه، ووصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله، فليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله منه، ولا أشد إثماً، وهو أصل الشرك والكفر، وعليه أسست البدع والضلالات، فكل بدعة مضلة في الدين أساسها القول على الله بلا علم . . »(٢).

وقال ـ عز وجل ـ: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦] يقول سيد قطب: «والعقيدة الإسلامية عقيدة الوضوح والاستقامة والنصاعة، فلا يقوم شيء فيها على الظن أو الوهم أو الشبهة . . . ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] ولا تتبع ما لم تعلمه علم اليقين وما لم تتثبت من صحته: من قول يقال، أو رواية تروىٰ، من ظاهرة تفسر، أو واقعة تعلل، ومن حكم شرعي، أو قضية اعتقادية»(٣).

وعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: «قال رسول الله ﷺ: إن

(١) تفسير السعدي: ٣/ ٢٢.
(٢) مدارج السالكين: ١/ ٣٧٨.
(٣) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٢٢٧.

الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتىٰ إذا لم يُبقِ عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسُئلوا فأفتوا بغير علم، فضلُّوا وأضلُّوا»(١).

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ في صفة الخوارج قال: «سمعت النبي ﷺ يقول: سيخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميَّة...»(٢).

ومن أقوال السلف في ذلك:

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «اُغْدُ عالماً أو متعلماً أو مستمعاً، ولا تكن الرابع فتهلك»(٣).

وعن سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ قال: «لا يزال الناس بخير ما بقي الأول، حتىٰ يتعلم الآخِر، فإذا هلك الأول قبل أن يتعلم الآخر هلك الناس»(٤).

٢ ـ اتباع الهوىٰ:

اتباع الهوىٰ وما تشتهيه الأنفس من أعظم عوائق الاتباع وأسباب الانحراف والزيغ عن الحق، بل إن جميع البدع والمعاصي إنما تنشأ من تقديم الهوىٰ علىٰ النص الصحيح، وذلك لأن من طبيعة النفس البشرية أنها تميل وترغب إلىٰ ما تهوىٰ وتحب، ويصعب علىٰ صاحبها صرفها عن ذلك ـ وبخاصة إذا كانت قد تعودت عليه ـ ما لم يقوَ إيمانه ويصلب يقينه، بل إن كل من لم يتابع الرسول ﷺ ويستجب له فيما جاء به: فإنه لم يذهب إلىٰ هدىٰ، وإنما ذهب واتبع الهوىٰ(٥)؛

---

(١) البخاري مع الفتح: ١/ ٢٣، رقم ١٠٠.
(٢) مسلم: ٢/ ٧٤٦، ٧٤٧، رقم ١٠٦٦.
(٣) الدارمي: ١/ ٨٤، رقم ٢٥٢.
(٤) المصدر السابق: ١/ ٨٤، رقم ٢٥٣.
(٥) انظر تفسير السعدي: ٦/ ٣٣.

ولذا: نجد النصوص قد توافرت في ذم اتباع الهوىٰ والتحذير منه، ومن ذلك:

قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

وقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

[الجاثية: ٢٣].

وعن معاوية ـ رضي الله عنه ـ قال: «قال رسول الله ﷺ: وإنه سيخرج من أمتي أقوام تَجَارَىٰ بهم تلك الأهواء كما يَتَجَارَىٰ الكَلَبُ لصاحبه، لا يبقىٰ منه عرق ولا مفصل إلا دخله»(١).

وكان رسول الله ﷺ يخاف من الأهواء، ويتعوذ بالله منها قائلاً: «اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء»(٢).

وليست الإشكالية في وجود هوىٰ في نفس العبد يدعوه إلىٰ مخالفة الرسول ﷺ؛ فإن ذلك ميدان للاختبار والامتحان، وقد لا يملكه العبد، وإنما الإشكالية في اتباع العبد للهوىٰ، وأخذه لما يحب، وتركه لما يبغض، وجعل ذلك هو الباعث والدافع إلىٰ القول والفعل، سواء وافق ذلك محبوب الله ـ تعالىٰ ـ أم خالفه(٣).

وقد يدخل الهوى على من له تعلق بالنصوص وارتباط بها؛ بحيث لا يدعوه هواه إلىٰ ترك النصوص بالكلية والإعراض عنها، وإنما يجعله يقرر ما يريده أولاً

(١) أبو داود: ٥/ ٥ ـ ٦، رقم ٤٥٩٧، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود: ٣/ ٨٦٩، رقم ٣٨٣.

(٢) الترمذي: ٥/ ٥٧٥، رقم ٣٥٩١، وصححه الألباني في صحيح الترمذي: ٣/ ١٨٤، رقم ٢٨٤٠.

(٣) انظر الفتاوىٰ لابن تيمية: ٢٨/ ١٣١ ـ ١٣٣.

ثم يذهب إلىٰ النصوص ليأخذ ما وافق هواه منها، يقول محمود شلتوت: «وقد يكون الناظر في الأدلة ممن تمتلكهم الأهواء فتدفعه إلىٰ تقرير الحكم الذي يحقق غرضه، ثم يأخذ في تلمس الدليل الذي يعتمد عليه ويجادل به، وهذا في الواقع يجعل الهوىٰ أصلاً تُحمل عليه الأدلة، ويحكم به علىٰ الأدلة، وهو قلب لقضية التشريع، وإفساد لغرض الشارع من نصب الأدلة»(١).

٣ ـ تقديم آراء الآباء والشيوخ والأكابر على النصوص الثابتة:

من عوائق الاتباع الكبرىٰ: تقديم آراء الآباء والشيوخ والأكابر علىٰ النصوص الصحيحة؛ يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ** ﴾ [**المائدة**: ١٠٤]، قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «أي: إذا دعوا إلىٰ دين الله وشرعه وما أوجبه، وترك ما حرمه: قالوا يكفينا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك؛ قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا** ﴾ [**المائدة**:١٠٤] أي: لا يفهمون حقّاً، ولا يعرفونه، ولا يهتدون إليه، فكيف يتبعونهم والحالة هذه؟! لا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم وأضل سبيلاً»(٢).

وقال ـ عز وجل ـ: ﴿ **يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا** ﴾ [**الأحزاب**: ٦٦ ـ ٦٨].

قال الشوكاني: «والمراد بالسادة والكبراء هم الرؤساء والقادة الذين كانوا يمتثلون أمرهم في الدنيا ويقتدون بهم. وفي هذا زجر عن التقليد شديد، وكم في الكتاب العزيز من التنبيه علىٰ هذا والتحذير منه والتنفير عنه، ولكن لمن يفهم معنىٰ كلام الله ويقتدي به وينصف من نفسه، لا لمن هو من جنس الأنعام في سوء

---

(١) البدعة أسبابها ومضارها لشلتوت: ص ٢٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ١٠٨، ١٠٩.

الفهم ومزيد البلادة وشدة التعصب»[١].

وقد وردت آثار كثيرة عن السلف تحذر من ذلك، ومنها:

قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ لعروة بن الزبير ـ حين قال له في مسألة: أما أبو بكر وعمر فلم يفعلا ـ: «والله وما أراكم منتهين حتىٰ يعذبكم الله، نحدثكم عن النبي ﷺ وتحدثونا عن أبي بكر وعمر»[٢].

وقول ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «ألا لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً، إن آمن آمن وإن كفر كفر، فإن كنتم لا بد مقتدين فبالميت؛ فإن الحي لا يُؤمَن عليه الفتنة»[٣]، وفي رواية عنه: «لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً، إن آمن آمن وإن كفر كفر، فإنه لا أسوة في الشر»[٤].

وقال عمر بن عبد العزيز: «لا رأي لأحد مع سنَّة سنَّها رسول الله ﷺ»[٥].

وقال الشافعي: «أجمع الناس علىٰ أن من استبانت له سنَّة عن رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس»، وصح عنه أنه قال: «لا قول لأحد مع سنَّة رسول الله ﷺ»[٦].

وقال ابن خزيمة: «لا قول لأحد مع رسول الله ﷺ إذا صح الخبر عنه»[٧].

ولابن تيمية كلام نفيس حول ذلك، إذ يقول: «فدين الله مبني علىٰ اتباع كتاب الله، وسنَّة نبيه، وما اتفقت عليه الأمة، فهذه الثلاثة هي المعصومة، وما

---

(١) فتح القدير: ٤/ ٤٣١.
(٢) جامع بيان العلم وفضله: ٢/ ١٢٠٩ـ١٢١٠، رقم ٢٣٧٧.
(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي: ١/ ٩٠٣، رقم ١٣٠.
(٤) إعلام الموقعين: ٢/ ١٣٥.
(٥، ٦) المصدر السابق: ٢/ ٢٠١.
(٧) المصدر السابق: ٢/ ٢٠٢.

تنازعت فيه الأمة ردوه إلىٰ الله والرسول، وليس لأحد أن ينصب للأمة شخصاً يدعو إلىٰ طريقته، يوالي عليها ويعادي، غير كلام الله ورسوله وما اجتمعت عليه الأمة، بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصاً أو كلاماً يفرقون به بين الأمة، يوالون به علىٰ ذلك الكلام أو تلك السنَّة ويعادون»(١).

ويدل علىٰ مبلغ الجناية التي يوصل إليها تقديم آراء الرجال ـ أيّاً كانوا ـ علىٰ النص الصحيح قولُ الكرخي ـ عفا الله عنه ـ: «كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهي مؤوَّلة أو منسوخة، وكل حديث كذلك فمؤول أو منسوخ»(٢).

قلت: وهذا هو ما عليه كثير من أبناء زماننا الذين قدَّموا رأي شيوخهم أو جماعاتهم أو أحزابهم علىٰ النصوص الصحيحة الثابتة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

٤ ـ تقديم العقل على النقل الصحيح:

كرم الله الإنسان وفضله بالعقل، وامتدح في كتابه ذوي الألباب والعقول المستنيرة، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩] وقال ـ سبحانه ـ: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] ولكن كثيراً من الناس لم يبقوا العقل في المكانة التي وضعه الله ـ تعالىٰ ـ فيها، بل زلُّوا فيه علىٰ صنفين:

* صنف عطله ولم يقم له وزناً.

* وصنف بالغ فيه وجعله مصدراً للتشريع وقدمه علىٰ النقل الصحيح، حيث بنوا لأنفسهم ضلالات يسمونها تارة بالحقائق واليقينيات، وتارة بالمصالح والغايات التي تهدف النصوص إلىٰ تحقيقها ـ وإن لم تنص عليها ـ، ثم يأخذون

---

(١) الفتاوىٰ لابن تيمية: ٢٠/ ١٦٤.

(٢) الرسالة في أصول الحنفية للكرخي: ١٦٩ ـ ١٧٠، (مطبوع مع تأسيس النظر للدبوسي).

النصوص الثابتة والتي يسمونها بالظنيات، فيعرضونها على تلك الضلالات، فما وافقها قبلوه وما عارضها ردوه، اعتماداً منهم على قاعدة: اليقين لا يزول بالشك!!

ولم يعلم هؤلاء أن للعقول حدوداً تنتهي في الإدراك إليها، وأن الله ـ تعالىٰ ـ لم يجعل لها سبيلاً إلى إدراك كل شيء(١)، كما لم يعلم أولئك أن الله حافظ دينه، وعاصم نبيه ﷺ من الزلل والانحراف في تبليغ دينه، وبالتالي: فما جاء به حق لا مرية فيه، كما أن ما يسمونه حقائق ويقينيات هي عين الباطل؛ بدليل اختلاف العقول والأفهام في تعيين الحقائق والمصالح من إنسان لآخر، وبدليل أن الله ـ تعالىٰ ـ أمرنا بالتسليم لحكمه وحكم رسوله، تسليماً مطلقاً، لا بمحاكمة النصوص إلى العقول قبل التسليم بها، كما في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [النساء: ٦٥].

وما أحسن كلام ابن أبي العز الحنفي حين شرح قول الطحاوي: «ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام»، فقال: «أي: لا يثبت إسلام من لم يسلِّم لنصوص الوحيين، وينقاد إليها، ولا يعترض عليها، ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسه، روى البخاري عن الإمام محمد بن شهاب الزهري ـ رحمه الله ـ أنه قال: «من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم»(٢).

٥ ـ التعلق بالشبهات:

دين الإسلام قائم على تسليم العبد المطلق بالوحي، ولكن كثيراً ممن قلَّت

---

(١) انظر الاعتصام للشاطبي: ٢/ ٣٤٩.
(٢) شرح الطحاوية: ١/ ٢٣١، وانظر البخاري مع الفتح: ١٣/ ٥١٢.

معرفته بالوحي تعلق بالشبهات وبضروب من الخيالات وتوهم المصالح، ظنّاً منهم أنها طريق معرفة الحق وسبيل الوصول إليه، ولذا: تجد مَن هذا حاله إذا جاءه من أخبره بالحق الثابت بالنص: تعلق قلبه بما سبق إلىٰ قلبه من شبهات وضلالات، فلم يؤمن بالحق في ذات نفسه، وأخذ يلبس علىٰ الناس الحق بما في قلبه وذهنه من باطل، فضَلَّ وأضل، ونتيجة لهذا الأمر الخطير فقد حذَّر النبي ﷺ أمته من هذا الصنف، فقال فيما ترويه عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «.. فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّىٰ الله فاحذروهم»[١]، وقال ﷺ: «سيكون في آخر أمتي ناس يحدثونكم ما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم؛ فإياكم وإياهم»[٢]، وتواترت أقاويل أئمة السلف في التحذير من الشبهات وأصحابها، ومن ذلك قول عمر: «إنه سيأتي ناس يجادلونكم بشبهات القرآن، فخذوهم بالسنن؛ فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله»[٣]، وقول أبي قلابة: «لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تحادثوهم، فإني لا آمن أن يغمروكم في ضلالتهم، أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون»[٤]، ويقول ابن سيرين محذراً: «إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم»[٥].

٦ ـ سكوت العلماء:

بسكوت العلماء عن نشر الحق والتحذير من الباطل يرتفع صوت الباطل، ويضعف صوت الحق، ويظن كثير من الناس أن أصحاب الباطل ـ نتيجة كثرتهم وفشوِّهم ـ هم أصحاب الحق؛ بدليل ظهورهم وبروزهم وإلا لما برزوا وظهروا، وينتج عن ذلك قلة أتباع الحق.

---

(١) البخاري مع الفتح: ٨/ ٥٧، رقم ٤٥٤٧.
(٢) مسلم: ١/ ١٢، رقم ٦.
(٣) الدارمي: ١/ ٥٣، رقم ١١٩.
(٤) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٤٧٢.
(٥) مسلم: ١/ ١٤.

ولذا جاءت النصوص بالتحذير من كتمان العلم وعدم نشره، قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠]، قال الشوكاني في تفسيره لهذه الآية: «اختلفوا في المراد بذلك، فقيل: أحبار اليهود ورهبان النصارىٰ الذين تركوا أمر محمد ﷺ، وقيل: كل من كتم الحق وترك بيان ما أوجب الله بيانه، وهو الراجح؛ لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما تقرر في الأصول، فعلىٰ فرض أن سبب النزول ما وقع من اليهود والنصارىٰ من الكتم، فلا ينافي ذلك تناول هذه الآية كل من كتم الحق. وفي هذه الآية من الوعيد الشديد ما لا يقادر قدره، فإن من لعنه الله ولَعَنه كلُّ من يتأتىٰ منه اللعن من عباده قد بلغ من الشقاوة والخسران إلىٰ الغاية التي لا تُلْحَق ولا يُدْرَك كنهها»(١).

وفي حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من سُئل عن علم علِمَه ثم كتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار»(٢) وفي رواية لابن ماجه: «ما من رجل يحفظ علماً فيكتمه إلا أُتي به يوم القيامة ملجماً بلجام من نار»(٣).

٧ ـ مجالسة أهل البدع والمعاصي:

من أعظم عوائق الاتباع مجالسة العبد لأهل البدع والمعاصي، حيث يزين أصحاب السوء لجليسهم ما هم عليه من باطل ويرونه إيَّاه حقاً، فإن لم يستطيعوا أن يقلبوا الحق في ذهنه ويغيروا مفاهيمه حاولوا إجباره علىٰ فعل باطلهم، إما مجاملة لهم، أو خوفاً من استهزائهم ونقدهم، فإن لم يستطيعوا ذلك فلا أقل من

(١) فتح القدير: ١/ ٢٣٨.
(٢) الترمذي: ٥/ ٢٩، رقم ٢٦٤٩.
(٣) ابن ماجه: ١/ ٩٦، رقم ٢٦١، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه: ١/ ٤٩، رقم ٢١٠.

أن يداهنهم بترك الإنكار عليهم، أو بعدم القيام بعمل الحق الذي لا يتفق مع أهوائهم.

ولذا اشتد نكير السلف وعظم تحذيرهم لأهل السنة من مخالطة جلساء السوء، ففي قصة عمر مع صبيغ قال أبو عثمان الراوي: «إن عمر كتب إلينا أن لا تجالسوه، قال: فلو جلس إلينا ونحن مائة لتفرقنا عنه»(١) وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «لا تجالس أهل الأهواء فإن مجالستهم ممرضة للقلب»(٢)، وقال مصعب بن سعد: «لا تجالس مفتوناً، فإنه لن يخطئك منه إحدىٰ اثنتين: إما أن يفتنك فتتابعه، وإما أن يؤذيك قبل أن تفارقه»(٣)، وقال مفضل بن مهلل: «لو كان صاحب البدعة إذا جلست إليه يحدثك ببدعته حذرته وفررت منه، ولكنه يحدثك بأحاديث السنَّة في بُدُوِّ مجلسه، ثم يُدخل عليك بدعته فلعلها تلزم قلبك، فمتىٰ تخرج من قلبك؟!»(٤)، وقال رجل لابن سيرين: إن فلاناً يريد أن يأتيك ولا يتكلم بشيء، قال: «قل لفلان: لا! ما يأتيني؛ فإن قلب ابن آدم ضعيف، وإني أخاف أن أسمع منه كلمة فلا يرجع قلبي إلىٰ ما كان»(٥).

٨ ـ الاعتماد على النصوص الضعيفة والموضوعة:

من أعظم عوائق الاتباع: الاعتماد علىٰ النصوص الضعيفة والموضوعة، وإثبات الأحكام بها، والقيام برد الحق الثابت بالنصوص الصحيحة بها، سواء أكان ذلك بسبب جهلهم وعدم قدرتهم علىٰ التمييز بين الصحيح والضعيف والموضوع منها، أم بسبب الاغترار بمقولة بعض أهل العلم بجواز العمل بالحديث

---

(١) الإبانة الكبرىٰ لابن بطة: ١/ ٤١٤، رقم ٣٢٩.
(٢) المصدر السابق: ٢/ ٤٣٨، رقم ٣٧١.
(٣) المصدر السابق: ٢/ ٤٤٢، رقم ٣٨٥.
(٤) المصدر السابق: ٢/ ٤٤٤، رقم ٣٩٤.
(٥) المصدر السابق: ٢/ ٤٤٦، رقم ٣٩٩.

الضعيف في فضائل الأعمال، متناسين أن لذلك شروطاً، أهمها: ألا يعتقد عند العمل ثبوت الحديث؛ لئلا ينسب إلى النبي ﷺ ما لم يقله، وألا يكون الضعف شديداً، وأن يكون الحكم الذي يثبته الحديث الضعيف مندرجاً تحت أصل عام، ليخرج بذلك ما لا أصل له والذي يمتنع تأسيس الأحكام وإثباتها عن طريق ما كان كذلك[١].

هذه نظرات في حقيقة الاتباع، أهديها لأحبتي في الله ـ تعالى ـ؛ لتجريد المتابعة الحقة للحبيب المصطفى ﷺ، ولتظهر حقيقة أدعياء المحبة من المبتدعة والطرقيين وغيرهم ومدى انحرافهم عن الجادة ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

---

(١) انظر: الاعتصام للشاطبي: ١/ ٢٢٨ـ٢٣١.

حكم الاحتفال بذكرى المولد النبوي

الشيخ الدكتور صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء بالسعودية

حكم الاحتفال بذكرى المولد النبوي

الشيخ الدكتور صالح بن فوزان الفوزان
عضو هيئة كبار العلماء بالسعودية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فلا يخفى ما ورد في الكتاب والسنة من الأمر باتباع ما شرعه الله ورسوله، والنهي عن الابتداع في الدين، قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال ﷺ: «إن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها»، وقال ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[١]، وفي رواية لمسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

وإن من جملة ما أحدثه الناس من البدع المنكرة الاحتفال بذكرى المولد النبوي في شهر ربيع الأول، وهم في هذا الاحتفال على أنواع:

فمنهم من يجعله مجرد اجتماع تُقرأ فيه قصة المولد، أو تُقدَّم فيه خطب وقصائد في هذه المناسبة.

ومنهم من يصنع الطعام والحلوى وغير ذلك، ويقدمه لمن حضر.

ومنهم من يقيمه في المساجد، ومنهم من يقيمه في البيوت.

---

(١) رواه البخاري، رقم٢٦٩٧، ومسلم، رقم ١٧١٨.

ومنهم من لا يقتصر علىٰ ما ذكر، فيجعل هذا الاجتماع مشتملاً علىٰ محرمات ومنكرات من اختلاط الرجال بالنساء والرقص والغناء، أو أعمال شركية كالاستغاثة بالرسول ﷺ وندائه والاستنصار به علىٰ الأعداء وغير ذلك. وهو بجميع أنواعه واختلاف أشكاله واختلاف مقاصد فاعليه لا شك ولا ريب أنه بدعة محرمة محدثة أحدثها الشيعة الفاطميون بعد القرون الثلاثة المفضلة؛ لإفساد دين المسلمين. وأول من أظهره بعدهم الملك المظفر أبو سعيد كوكبوري ملك إربل في آخر القرن السادس أو أول القرن السابع الهجري، كما ذكره المؤرخون كابن كثير وابن خلكان وغيرهما.

وقال أبو شامة: وكان أول من فعل ذلك بالموصل الشيخ عمر بن محمد الملا أحد الصالحين المشهورين، وبه اقتدىٰ في ذلك صاحب إربل وغيره.

قال الحافظ ابن كثير في «البداية»(١) في ترجمة أبي سعيد كوكبوري: «وكان يعمل المولد الشريف في ربيع الأول ويحتفل به احتفالاً هائلاً... إلىٰ أن قال: قال السبط: حكىٰ بعض من حضر سماط المظفر في بعض الموالد أنه كان يمد في ذلك السماط خمسة آلاف رأس مشوي، وعشرة آلاف دجاجة، ومائة ألف زبدية، وثلاثين ألف صحن حلوىٰ... إلىٰ أن قال: ويعمل للصوفية سماعاً من الظهر إلىٰ الفجر ويرقص بنفسه معهم».

وقال ابن خلكان في «وفيات الأعيان»(٢): «فإذا كان أول صفر زينوا تلك القباب بأنواع الزينة الفاخرة المتجملة، وقعد في كل قبة جوق من الأغاني، وجوق من أرباب الخيال ومن أصحاب الملاهي، ولم يتركوا طبقة من تلك الطبقات (طبقات القباب) حتىٰ رتبوا فيها جوقاً.

---

(١) البداية والنهاية: ١٣/ ١٣٧.
(٢) وفيات الأعيان: ٣/ ٢٧٤.

وتبطل معايش الناس في تلك المدة، وما يبقى لهم شغل إلا التفرج والدوران عليهم. . .»، إلى أن قال: «فإذا كان قبل يوم المولد بيومين أخرج من الإبل والبقر والغنم شيئاً كثيراً زائداً عن الوصف، وزفها بجميع ما عنده من الطبول والأغاني والملاهي، حتى يأتي بها إلى الميدان. . .»، إلى أن قال: «فإذا كانت ليلة المولد عمل السماعات بعد أن يصلي المغرب في القلعة».

فهذا مبدأ حدوث الاحتفال وإحيائه بمناسبة ذكرى المولد، حدث متأخراً ومقترناً باللهو والسرف وإضاعة الأموال والأوقات وراء بدعة ما أنزل الله بها من سلطان.

والذي يليق بالمسلم إنما هو إحياء السنن وإماتة البدع، وألا يقدم على عمل حتى يعلم حكم الله فيه.

حكم الاحتفال بذكرى المولد النبوي:

الاحتفال بمناسبة مولد الرسول ﷺ ممنوع ومردود من عدة وجوه:

أولاً: أنه لم يكن من سنَّة الرسول ﷺ ولا من سنَّة خلفائه. وما كان كذلك فهو من البدع الممنوعة؛ لقوله ﷺ: «عليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»(١).

والاحتفال بالمولد محدث أحدثه الشيعة الفاطميون بعد القرون المفضلة لإفساد دين المسلمين. ومن فعل شيئاً يتقرب به إلى الله ـ تعالى ـ لم يفعله الرسول ﷺ، ولم يأمر به، ولم يفعله خلفاؤه من بعده؛ فقد تضمن فعله اتهام الرسول بأنه لم يبيّن للناس دينهم، وتكذيب قوله ـ تعالى ـ: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾ [**المائدة**: ٣] لأنه جاء بزيادة يزعم أنها من الدين ولم يأت بها الرسول ﷺ.

---

(١) أخرجه أحمد: ٤/١٢٦، والترمذي، رقم ٢٦٧٦.

ثانياً: في الاحتفال بذكرىٰ المولد تشبّه بالنصارىٰ؛ لأنهم يحتفلون بذكرىٰ مولد المسيح - عليه السلام - . والتشبُّه بهم محرم أشد التحريم، ففي الحديث النهي عن التشبُّه بالكفَّار، والأمر بمخالفتهم، فقد قال ﷺ: «من تشبَّه بقوم فهو منهم»(١)، وقال: «خالفوا المشركين»(٢)، ولا سيما فيما هو من شعائر دينهم.

ثالثاً: أن الاحتفال بذكرىٰ مولد الرسول مع كونه بدعة وتشبهاً بالنصارىٰ - وكل منهما محرم - فهو كذلك وسيلة إلىٰ الغلو والمبالغة في تعظيمه حتىٰ يفضي إلىٰ دعائه والاستغاثة به من دون الله، كما هو الواقع الآن من كثير ممن يحييون بدعة المولد، من دعاء الرسول من دون الله، وطلب المدد منه، وإنشاد القصائد الشركية في مدحه كقصيدة البردة وغيرها، وقد نهىٰ ﷺ عن الغلو في مدحه فقال: «لا تطروني كما أطرت النصارىٰ ابن مريم فإنما أنا عبدُهُ، فقولوا عبد الله ورسوله»(٣)، أي لا تغلوا في مدحي وتعظيمي كما غلت النصارىٰ في مدح المسيح وتعظيمه حتىٰ عبدوه من دون الله، وقد نهاهم الله عن ذلك بقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

ونهانا نبينا ﷺ عن الغلو خشية أن يصيبنا ما أصابهم، فقال: «إياكم والغلو؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»(٤).

رابعاً: إن إحياء بدعة المولد يفتح الباب للبدع الأخرىٰ والاشتغال بها عن السنن، ولهذا تجد المبتدعة ينشطون في إحياء البدع ويكسلون عن السنن

---

(١) أخرجه أحمد: ٢/ ٥٠، وأبو داود: ٤/ ٣١٤، وجوَّد إسناده ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم: ١/ ٢٦٩، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير، رقم ٨٥٩٣.

(٢) أخرجه مسلم: ١/ ٢٢٢، رقم ٢٥٩.

(٣) أخرجه البخاري: ٤/ ١٤٢، رقم ٣٤٤٥، الفتح: ٦/ ٥٥١.

(٤) أخرجه النسائي: ٥/ ٢٦٨، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي، رقم ٢٨٦٣.

ويبغضونها ويعادون أهلها، حتى صار دينهم كله ذكريات بدعية وموالد، وانقسموا إلى فرق كل فرقة تحيي ذكرى موالد أئمتها، كمولد البدوي وابن عربي والدسوقي والشاذلي، وهكذا لا يفرغون من مولد إلا وينشغلون بآخر، ونتج عن ذلك الغلو بهؤلاء الموتى وبغيرهم دعاؤهم من دون الله، واعتقاد أنهم ينفعون ويضرون حتى انسلخوا من دين الإسلام وعادوا إلى دين أهل الجاهلية الذين قال الله فيهم: ﴿ **وَيَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ** ﴾ [يونس: ١٨]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** ﴾ [الزمر: ٣].

مناقشة شُبَه مقيمي المولد:

هذا، وقد يتعلق من يرى إحياء هذه البدعة بشُبَه أوهى من بيت العنكبوت، ويمكن حصر هذه الشُبَه فيما يلي:

١ ـ دعواهم أن في ذلك تعظيماً للنبي ﷺ.

والجواب عن ذلك أن نقول: إنما تعظيمه ﷺ بطاعته وامتثال أمره واجتناب نهيه ومحبته ﷺ، وليس تعظيمه بالبدع والخرافات والمعاصي، والاحتفال بذكرى المولد من هذا القبيل المذموم لأنه معصية. وأشد الناس تعظيماً للنبي ﷺ هم الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، كما قال عروة بن مسعود لقريش: «أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً ﷺ، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدُّون النظر إليه تعظيماً له»(١)، ومع هذا التعظيم ما جعلوا يوم مولده عيداً واحتفالاً، ولو كان ذلك مشروعاً ما تركوه.

---

(١) البخاري: ٣/ ١٧٨، رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢، الفتح: ٥/ ٣٨٨.

٢ ـ الاحتجاج بأن هذا عمل كثير من الناس في كثير من البلدان.

والجواب عن ذلك أن نقول: الحجة بما ثبت عن الرسول ﷺ. والثابت عن الرسول ﷺ النهي عن البدع عموماً، وهذا منها. وعمل الناس إذا خالف الدليل فليس بحجة وإن كثروا: ﴿ **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [**الأنعام**: ١١٦]، مع أنه لا يزال ـ بحمد الله ـ في كل عصر من ينكر هذه البدعة ويبين بطلانها، فلا حجة بعمل من استمر على إحيائها بعد ما تبين له الحق.

فممن أنكر الاحتفال بهذه المناسبة شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم»، والإمام الشاطبي في «الاعتصام»، وابن الحاج في «المدخل»، والشيخ تاج الدين علي بن عمر اللخمي ألَّف في إنكاره كتاباً مستقلاً، والشيخ محمد بشير السهسواني الهندي في كتابه «صيانة الإنسان»، والسيد محمد رشيد رضا ألَّف فيه رسالة مستقلة، والشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ألَّف فيه رسالة مستقلة، وسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، وغير هؤلاء ممن لا يزالون يكتبون في إنكار هذه البدعة كل سنة في صفحات الجرائد والمجلات، في الوقت الذي تقام فيه هذه البدعة.

٣ ـ يقولون: إن في إقامة المولد إحياءً لذكر النبي ﷺ.

والجواب عن ذلك أن نقول: إن ذكرىٰ الرسول ﷺ تتجدد مع المسلم، ويرتبط بها المسلم كلما ذكر اسمه ﷺ في الأذان والإقامة والخطب، وكلما ردد المسلم الشهادتين بعد الوضوء وفي الصلوات، وكلما صلىٰ علىٰ النبي ﷺ في صلواته وعند ذكره، وكلما عمل المسلم عملاً صالحاً واجباً أو مستحباً مما شرعه الرسول ﷺ فإنه بذلك يتذكره ويصل إليه من الأجر مثل أجر العامل.. وهكذا المسلم دائماً يحيي ذكرىٰ الرسول ويرتبط به في الليل والنهار طوال عمره بما شرعه الله، لا في يوم مولده فقط وبما هو بدعة ومخالفة لسنته؛ فإن ذلك يبعد

عن الرسول ﷺ ويتبرأ منه. والرسول ﷺ غني عن هذا الاحتفال البدعي بما شرعه الله له من تعظيمه وتوقيره كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، فلا يذكر الله ـ عز وجل ـ في أذان ولا إقامة ولا خطبة إلا ويذكر بعده الرسول ﷺ وكفى بذلك تعظيماً ومحبة وتجديداً لذكراه وحثاً على اتباعه.

والله ـ سبحانه وتعالى ـ لم ينوِّه في القرآن بولادة الرسول ﷺ، وإنما نوه ببعثته، فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

٤ ـ قد يقولون: الاحتفال بذكرى المولد النبوي أحدثه ملك عادل عالم، قصد به التقرب إلى الله!

والجواب عن ذلك أن نقول: البدعة لا تُقبل من أي أحد كان، وحُسْن القصد لا يُسوِّغ العمل السيئ، وكونه عالماً وعادلاً لا يقتضي عصمته.

٥ ـ قولهم: إن إقامة المولد من قبيل البدعة الحسنة؛ لأنه ينبئ عن الشكر لله على وجود النبي الكريم!

ويجاب عن ذلك بأن يقال: ليس في البدع شيء حسن؛ فقد قال ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»(١)، وقال ﷺ: «فإن كل بدعة ضلالة»(٢)؛ فحكم على البدع كلها بأنها ضلالة، وهذا يقول: ليس كل بدعة ضلالة، بل هناك بدعة حسنة.

قال الحافظ ابن رجب في «شرح الأربعين»: «فقوله ﷺ: «كل بدعة ضلالة»: من جوامع الكلم، لا يخرج عنه شيء، وهو أصل عظيم من أصول

---

(١) أخرجه البخاري: ٣/ ١٦٧، رقم ٢٦٩٧، الفتح: ٥/ ٣٥٥.
(٢) أخرجه أحمد: ٤/ ١٢٦، والترمذي، رقم ٢٦٧٦.

الدين، وهو شبيه بقوله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»(١)؛ فكل من أحدث شيئاً ونسبه إلىٰ الدين ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه فهو ضلالة والدين بريء منه، وسواء في ذلك مسائل الاعتقادات أو الأعمال أو الأقوال الظاهرة والباطنة»(٢). انتهىٰ.

وليس لهؤلاء حجة علىٰ أن هناك بدعة حسنة إلا قول عمر - رضي الله عنه - في صلاة التراويح: «نعمت البدعة هذه»(٣)!

وقالوا - أيضاً -: إنها أُحدثت أشياء لم يستنكرها السلف؛ مثل: جمع القرآن في كتاب واحد، وكتابة الحديث وتدوينه.

والجواب عن ذلك أن هذه الأمور لها أصل في الشرع؛ فليست محدثة.

وقول عمر: «نعمت البدعة»؛ يريد: البدعة اللغوية لا الشرعية؛ فما كان له أصل في الشرع يرجع إليه، إذا قيل: إنه بدعة؛ فهو بدعة لغة لا شرعاً؛ لأن البدعة شرعاً ما ليس له أصل في الشرع يرجع إليه.

وجمع القرآن في كتاب واحد له أصل في الشرع؛ لأن النبي ﷺ كان يأمر بكتابة القرآن، لكن كان مكتوباً متفرقاً، فجمعه الصحابة في كتاب واحد حفظاً له.

والتراويح قد صلاها النبي ﷺ بأصحابه ليالي وتخلف عنهم في الأخير خشية أن تفرض عليهم، واستمر الصحابة - رضي الله عنهم - يصلونها أوزاعاً متفرقين في حياة النبي ﷺ وبعد وفاته، إلىٰ أن جمعهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - خلف إمام واحد كما كانوا خلف النبي ﷺ، وليس هذا بدعة في الدين.

---

(١) أخرجه البخاري: ٣/ ١٦٧، رقم ٢٦٩٧، الفتح: ٥/ ٣٥٥.

(٢) جامع العلوم والحكم، ص ٢٣٣.

(٣) صحيح البخاري: ٢/ ٢٥٢، رقم ٢٠١٠ معلقاً، الفتح: ٤/ ٢٩٤.

وكتابة الحديث أيضاً لها أصل في الشرع؛ فقد أمر النبي ﷺ بكتابة بعض الأحاديث لبعض أصحابه لما طلب منه ذلك، وكان المحذور من كتابته بصفة عامة في عهده ﷺ خشية أن يختلط بالقرآن ما ليس منه، فلما توفي ﷺ انتفى هذا المحذور؛ لأن القرآن قد تكامل وضبط قبل وفاته ﷺ، فدوَّن المسلمون السنَّة بعد ذلك حفظاً لها من الضياع، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خيراً؛ حيث حفظوا كتاب ربهم وسنَّة نبيهم ﷺ من الضياع وعبث العابثين.

ويقال - أيضاً -: لماذا تأخر القيام بهذا الشكر - على زعمكم -، فلم يقم به أفضل القرون من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، وهم أشد محبة للنبي ﷺ وأحرص على فعل الخير والقيام بالشكر؛ فهل كان من أحدث بدعة المولد أهدى منهم وأعظم شكراً لله عز وجل؟ حاشا وكلاَّ.

٦ - قد يقولون: إن الاحتفال بذكرى مولده ﷺ ينبئ عن محبته؛ فهو مظهر من مظاهرها، وإظهار محبته ﷺ مشروع!

والجواب أن نقول: لا شك أن محبته ﷺ واجبة على كل مسلم أعظم من محبة النفس والولد والوالد والناس أجمعين - بأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه عليه -، ولكن ليس معنى ذلك أن نبتدع في ذلك شيئاً لم يشرعه لنا، بل محبته تقتضي طاعته واتباعه؛ فإن ذلك من أعظم مظاهر محبته، كما قيل:

لو كان حبك صادقاً لأطعته   إن المحبَّ لمن يحب مطيع

فمحبته ﷺ تقتضي إحياء سنَّته، والعض عليها بالنواجذ، ومجانبة ما خالفها من الأقوال والأفعال، ولا شك أن كل ما خالف سنَّته فهو بدعة مذمومة ومعصية ظاهرة، ومن ذلك الاحتفال بذكرى مولده وغيره من البدع. وحسن النية لا يبيح الابتداع في الدين؛ فإن الدين مبني على أصلين: الإخلاص والمتابعة، قال - تعالى -: **﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا**

هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]، فإسلام الوجه هو الإخلاص لله، والإحسان هو المتابعة للرسول وإصابة السنَّة.

٧ ـ **ومن شُبَهِهم**: أنهم يقولون: إن في إحياء ذكرىٰ المولد وقراءة سيرة الرسول ﷺ في هذه المناسبة حثاً علىٰ الاقتداء والتأسي به! فنقول لهم: إن قراءة سيرة الرسول ﷺ والتأسي به مطلوبان من المسلم دائماً طوال السنة وطول الحياة، أما تخصيص يوم معين لذلك بدون دليل علىٰ التخصيص فإنه يكون بدعة «وكل بدعة ضلالة»(١) والبدعة لا تثمر إلا شراً وبعداً عن النبي ﷺ.

وخلاصة القول: أن الاحتفال بذكرىٰ المولد النبوي بأنواعه واختلاف أشكاله بدعة منكرة يجب علىٰ المسلمين منعها ومنع غيرها من البدع، والاشتغال بإحياء السنن والتمسك بها، ولا يُغتر بمن يروِّج هذه البدعة ويدافع عنها؛ فإن هذا الصنف يكون اهتمامهم بإحياء البدع أكثر من اهتمامهم بإحياء السنن، بل ربما لا يهتمون بالسنن أصلاً، ومن كان هذا شأنه فلا يجوز تقليده والاقتداء به، وإن كان هذا الصنف هم أكثر الناس، وإنما يقتدىٰ بمن سار علىٰ نهج السنَّة من السلف الصالح وأتباعهم وإن كانوا قليلاً؛ فالحق لا يُعْرف بالرجال، وإنما يُعْرف الرجال بالحق.

قال ﷺ: «فإنه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافاً كثيراً؛ فعليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة»(٢)، فبين لنا ﷺ في هذا الحديث الشريف بمن نقتدي عند الاختلاف، كما بين أن كل ما خالف السنَّة من الأقوال والأفعال فهو بدعة، وكل بدعة ضلالة.

---

(١) أخرجه أحمد: ٤/ ١٦٤، والترمذي، رقم ٢٦٧٦.
(٢) أخرجه أحمد: ٤ / ١٢٦، والترمذي، رقم ٢٦٧٦.

وإذا عرضنا الاحتفال بالمولد النبوي لم نجد له أصلاً في سنَّة رسول الله ﷺ، ولا في سنة خلفائه الراشدين، إذن فهو من محدثات الأمور ومن البدع المضلة، وهذا الأصل الذي تضمنه هذا الحديث قد دل عليه قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾ [النساء: ٥٩].

والرد إلىٰ الله هو الرجوع إلىٰ كتابه الكريم، والرد إلىٰ الرسول ﷺ هو الرجوع إلىٰ سنَّته بعد وفاته؛ فالكتاب والسنة هما المرجع عند التنازع، فأين في الكتاب والسنة ما يدل علىٰ مشروعية الاحتفال بالمولد النبوي؟ فالواجب علىٰ من يفعل ذلك أو يستحسنه أن يتوب إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ منه ومن غيره من البدع؛ فهذا هو شأن المؤمن الذي ينشد الحق، وأما من عاند وكابر بعد قيام الحجة فإنما حسابه عند ربه.

هذا، ونسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يرزقنا التمسك بكتابه وسنَّة رسوله إلى يوم نلقاه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه.

ظاهرة الاحتفال بالمولد النبوي وآثارها

مصر أنموذجاً

عبد الكريم الحمدان

ظاهرة الاحتفال بالمولد النبوي وآثارها

مصر أنموذجاً

عبد الكريم الحمدان

كـيـف؟ لا أدري. لماذا؟ ربما ... أنني يوماً عـرفت السَـبَـبَـا
عـالمٌ يدعـو بدعـوى جـاهلٍ!! ... وليـوثُ الحـربِ تـرجـو الأرْنَبَـا!!

سؤال مبهم في مطلعه، لكنه محير في خاتمته!! والإجابة عنه تختلف باختلاف ما يدور السؤال حوله من مبهمات حياتنا التي كثرت، وكل منها يحتاج إلىٰ أسئلة لكنها أحوج إلىٰ إجابات تشفي.

كيف تصبح محبة الرسول ﷺ حيدةً عن دينه وهديه؟

كيف تصاغرت همم الناس للاشتغال بذكر شمائل رسولهم ﷺ ومآثره في يوم أو بعض يوم من العام، ثم يُتناسىٰ ويُهجر ذكره سائر العام؟!

ولماذا تنفق الأموال وتسير الجموع إلىٰ مثل هذه المواقف؛ والمسلمون في كل أرض يُتخطفون؟!

أسئلة تطرح نفسها مع كل موسم يتنادىٰ فيه القوم لاحتفال من احتفالاتهم، والتي من أشهرها: الاحتفال بمولد المصطفىٰ ﷺ الذي أجروه مجرىٰ الواجبات، حتىٰ أصبح من (الشعائر) التي يعزّ عليهم إغفالها أو ترك القيام بها؛ مع تفريطهم في كثير من فروض الأعيان والكفايات، فضلاً عن السنن والمستحبات.

بداية الأمر: لم يكن للاحتفال بالمولد في مصر خبر ولا أثر حتىٰ أحدثه المعز العبيدي، وأحدث معه خمسة أُخر لعلي وفاطمة والحسن والحسين-رضي الله عنهم-ومولداً لمن يحكم من العبيديين.

إلىٰ جانب هذا أحدث العبيديون «الفاطميون» اثنين وعشرين موسماً، كعيد الخليج وعيد النوروز وأمثالها، وكلها أيام لهو ولعب.. ثم توسعوا أكثر بإقامة موالد لكل من زعموا لهم الولاية، والله أعلم بما كانوا يعملون.

وأصبح تضخيم تلك الاحتفالات وحبك الأساطير حولها، ثم إشاعتها بين العوام وأشباههم ليتلهوا بها.. من الوسائل التي يلجأ إليها الحكام لصرف الناس عن الدين الحق؛ فما إن يتفرغ الناس من مناسبة حتىٰ يلاحقوا بغيرها، وهكذا دواليك.

وإذا نظرنا في الدوافع إلىٰ ذلك وجدنا فيها ما لا يمت إلىٰ محبة النبي ﷺ وآل بيته بصلة، فلا الدوافع في ذلك محمودة، ولا الذرائع من ورائها مشروعة، وهذا ما نلمسه إلىٰ يومنا هذا.

أسباب النشأة وتفاعلاتها الاجتماعية:

من خلال التتبع الواقعي لتاريخ الاحتفال بالمولد في مصر واستقراء ما يجري فيه من وقائع.. يمكن أن نجمل الدافع إلىٰ ذلك في عدة أسباب، هي:

١ ـ **نشر العقائد الشيعية** من خلال التذرع بحب آل البيت والارتباط بهم؛ وهذا ما صنعه العبيديون من قبل، ويفعله أحفادهم والمتأثرون بهم في كثير من البلاد.

٢ ـ **نيل الشهرة والصيت**؛ وهذا يختص بفئة تنفق علىٰ هذه الموالد وترعاها من الأغنياء والموسرين.

٣ ـ **كسب الولاء الديني**، وهو الدافع الذي يدفع (مشايخ الطرق) للتسابق في إقامة السرادقات، والمشي في المسيرات من أجل الاستزادة من الأتباع.

٤ ـ **الارتزاق**، وهو ما يقوم به طائفة عريضة من تجار الحلوىٰ وبائعي (أمور أخرىٰ) ومؤجري الألعاب والملاهي والبائعين الجوّالين، بل مشايخ الطرق المتنفعين بما يجري في الأضرحة، والمداحين والقصاصين والمنشدين والمغنين والراقصات! وأمثالهم.

٥ ـ **إتاحة الفرصة أمام الفساق والفجار الذين يسعون وراء الحرام**؛ فإذا ما سمعوا بمولد قالوا: هلموا إلىٰ بغيتكم؛ حيث يتسنىٰ لهم فيها قضاء مآربهم.

٦ ـ **التعمية على بعض الممارسات المعادية للدين الحق**. وقد تطور هذا في العصور المتأخرة إلىٰ وسائل أكثر تعمية كأن تفتتح في الموالد بعض المشاريع الكبرىٰ وتقام «المهرجانات الدينية»! من أجل الاحتفال بسيد المرسلين ﷺ!، وتكون الرسالة التي يراد لها أن تبلغ الجميع أنه ليس أغير على النبي ﷺ ودينه من هؤلاء، ويُقدَّم الرسول ﷺ في أدبياتهم علىٰ أنه شخصية تاريخية كان لها أثرها في تاريخ الأمة العربية! شأنها شأن العظماء؛ ومع انتهاء الحفل يسدل الستار حتىٰ إشعار آخر.

وأوضح أنموذج لذلك ما ذكره الجبرتي من أن نابليون أمر الشيخ البكري بإقامة الاحتفال بالمولد وأعطاه ثلاثمائة ريال فرنسي، وأمره بتعليق الزينات، بل وحضر الحفل بنفسه من أوله إلىٰ آخره[1]، ويعلق عبد الرحمن الرافعي قائلاً: «فنابليون قد استعمل (سياسة الحفلات) ليجذب إليه قلوب المصريين من جهة، وليعلن عن نفسه في العالم الإسلامي بأنه صديق الإسلام والمسلمين»[2].

---

(١) انظر تاريخ الجبرتي: ٢/ ٢٠١ـ٢٠٢، ويعلل الجبرتي اهتمام الفرنسيين بالاحتفال بالموالد عموماً بما «رآه الفرنسيون في هذه الموالد من الخروج عن الشرائع، واجتماع النساء، واتباع الشهوات، والرقص، وفعل المحرمات».

(٢) تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم لعبد الرحمن الرافعي، ص ٢٥٨ـ٢٦١.

مشاهد من الاحتفال:

تختلف صور الاحتفال تبعاً للفئة المحتفلة وأفكارها وأهدافها، ويمكننا في هذا المقام التفريق بين أربع فئات درجت على الاحتفال بالمولد في العقود الأخيرة:

أولها: الجهات الحكومية، وهي التي كانت تمثل رسمياً في هذه الاحتفالات؛ حيث كانت وزارة الأوقاف ترعى الاحتفال السنوي الذي كان يحضره الملك في أيام الملكية، ثم أصبح يحضره الرؤساء في عهد الجمهورية، وفي العادة فإن الملوك والرؤساء يلقون في هذا اليوم خطبة، كما يحضره شيخ الأزهر وعدد من الوزراء والشخصيات العامة، وتوزع فيه جوائز على الفائزين في «مسابقة تقام احتفالاً بالمولد النبوي»، كما توزع فيه الجوائز التقديرية على بعض الحضور باسم تكريم العلم والعلماء، كما تقام احتفالات في كافة المدن ترعاها فرق من الشرطة.

وفي وقتنا الحاضر تحتفل إذاعة القرآن الكريم في مصر بالمولد على مدى شهر كامل هو ربيع الأول. ومع أن كثيراً من البرامج لا غبار عليها إلا أن ارتباطها بموسم لم يقره الشرع يبقى نقطة مؤاخذة، إضافة إلى بعض البرامج والفقرات التي لا تخلو من غلو في شخصه ﷺ، مثل قول المنشد:

ميلادُ طه أكرمُ الأعياد ونذيرُ كلِّ الخير والإسعاد

ثانيها: الجهات شبه الرسمية، ويمثلها تقليدياً في الاحتفالات المجلس الصوفي الأعلى والطرق التابعة له ووكلاؤه في كل المدن؛ إذ ينص قانون تنظيم الطرق الصوفية الصادر ١٩٧٦م على اختصاص هذا المجلس بإصدار تصاريح إقامة الموالد! ومجالس الذكر، وسَيْر المواكب، والاحتفالات في المواسم والأعياد الدينية[1]، وتقيم المشيخة الصوفية هذا الاحتفال الذي تحضره مواكب

(١) المادة ١٢ من الباب الأول من اللائحة التنفيذية، وهذا يعني أن الدولة تعترف رسمياً بسلطة هذا المجلس.

الشرطة، ويحضره مندوب رسمي عن رئيس البلاد، وتعزف فيه الموسيقىٰ، وتنطلق المسيرة تحت الرايات طريقة بعد أخرىٰ، في موجة من الإنشاد مبتدئة من مسجد الجعفري مشياً علىٰ الأقدام بالشوارع، لتنتهي إلىٰ المشهد الحسيني الذي يقف الجميع أمامه في خشوع لقراءة الفاتحة للنبي ﷺ، ثم تُدَبَّج الخطب وتلقىٰ الأناشيد والأشعار. ويبدأ الحفل الشعبي من حيث انتهىٰ الحفل الرسمي الذي تنقله الإذاعة والتلفزيون عادة.

ويدخل كل (شيخ طريقة) خيمته، وتُعقد حلقات الذكر أو الشطح والرقص والتدخين والإنشاد والتشبيب إلىٰ جنب المراقص وملاعب القمار وأماكن مشبوهة، وإذا ما قُدِّر لامرئ أن يرىٰ أنواع الشر مجتمعة فما أحسب أنه سيجد مكاناً يُجملها مثل هذه المواطن التي تمارس فيها المعاصي علىٰ أنها طاعة، والخرافة علىٰ أنها حقيقة، والجهل علىٰ أنه علم. ويمكنك أن تلمس هذا وأنت تسمع لمنشد يهذي بين أدعياء المحبة فيقول:

نور الهدى قد بدا في العرب والعجم سعد السعود علا في الحل والحرم
بمولد المصطفى أصل الوجود ومن لولاه لم تخرج الأكوان من عدم

ويطلب القوم المزيد فيسمعهم حُلُوليَّات ابن الفارض:

وإني وإن كنت ابن آدم صورة فلي فيه معنى شاهد بأبوتي

ويستزيدونه حتىٰ يقول:

أنا فيكمو أنا فيكمو ولكني خفي عنكمو

وهنا يتصايح الناس ويسقط بعضهم ويسكر بعضهم، ويظل يُهذرم بكلام لا يعني إلا الحلول، أو ما يسميه بعضهم بالحضرة الإلهية علىٰ اختلافٍ بينهم.

والحق أن الموالد من أخصب البيئات للمناكر الظاهرة والمستترة؛ ففي ساحاتها الواسعة ينتشر الرقعاء دون خجل، ويختلط النساء بالرجال في المأكل

والمشرب وغيرها؛ حيث تكثر جرائم الزنا واللواط، ويُدخَّن الحشيش، وتسمع الأغاني الخليعة والموسيقى الصاخبة، وتختفي روح الجد، وتفيض روح الفوضى وعدم النظام، كما تختفي النظافة من المساجد، وتضطرب أوقات الصلوات والجماعات، ودعك من أن أكثر الوافدين على هذه الساحات لهم عقائد غريبة؛ فربما ضنَّ أحدهم على أمِّه بقروش يبرُّها بها في الوقت الذي يبسط يده بالنفقة هنا! وبعضهم يعتذر لهذه الموالد بأن فيها حلقات للذكر ودروساً للعلم وتلاوة للقرآن وإطعاماً للفقراء والمساكين!! وكل هذه الآثام ينتعش وجودها في هذا الجو الاحتفالي المبتدَع الذي ما أنزل الله به من سلطان، ومع هذا يدعي أهله أنهم يحبون النبي ﷺ ويحيون ذكراه!

ولو خلت الموالد من هذه الآثام التي سقناها آنفاً، لوجب تعطيلها أيضاً؛ لمظاهر التديُّن الفاسد التي تسودها؛ فحلقات الذكر ضروب من الهوس وألوان من الرقص الذي يسودُّ له وجه أهل الدين!

أما القرآن المتلو في هذه الساحات فما ينتفع به قائل ولا سامع؛ إنه ضرب من غناء مملول النغم يتصنع له بعض السامعين من الإقبال ريثما يفرغ منه، وكذلك الوعظ في دروس الوعظ والإرشاد التي تنظمها بعض المؤسسات الدينية لا تكاد تظفر بفائدة مما يراد نشره بين الجماهير المحتشدة في هذه الموالد.

تلك محاولات عابثة وإهدار لقيمة الذكر الحكيم والحديث الشريف.

ولو افترضنا وجود بعض الخير بين الأعمال التي تمارس في المولد فإنها لا تُسوِّغ إقامة الموالد بعدما أضحت الشرور المتيقنة التي تكتنفها أكثر بكثير من تلك الفوائد المظنونة؛ وقانون الشريعة في هذا: أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح(١).

---

(١) الكلام للشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ نقلاً عن (الوثنية في ثوبها الجديد) لسمير شاهين، ص ١٠٦، ١٠٧.

وثالث الفئات المحتفلة بالمولد هم عامة الناس الذين كانوا يمثلون زَخْماً قوياً لاحتفالات الصوفية حتىٰ وقت قريب، لكن الإقبال قلَّ كثيراً نتيجة عدد من العوامل منها:

١ ـ الأثر الذي أحدثته الصحوة الإسلامية المباركة، وتمثل في توعية الناس؛ فلا شك أن ذلك كان له أثر كبير في محاربة البدع.

٢ ـ ارتفاع نسبة التعليم والتثقيف الذي أدىٰ إلىٰ سقوط كثير من الأوهام والخرافات.

٣ ـ الهجوم العلماني وما يشيعه من سلوكيات مادية، ولا يخفىٰ أن منطق هجومه عقلاني وليس شرعياً، فهو ينظر إلىٰ الموالد نظرة مزدوجة؛ نظرة سخرية وتسخير لتشويه الإسلام، ونظرة تقديم لهذا النموذج علىٰ أنه هو الإسلام الحقيقي فيقدمه في أعماله الفنية علىٰ أنه نوع من الفلكلور الشعبي.

وقد نجح الاتجاه العلماني في اجتذاب قطاع من المجتمع بعيداً عن الموالد.

٤ ـ كثرة وسائل الترفيه من وسائل إعلام وغيرها مما اجتذب الفئة التي كانت تحتفل بالمولد من أجل الترفيه والترويح؛ فقد وجدت ما يغنيها ويزيد في هذه الوسائل، ومع هذا فيبقىٰ احتفال قطاع عريض من العامة بالمولد محصوراً في شراء حلوىٰ المولد ومشاهدة الاحتفالات في التلفاز، وإن كانت الاحتفالات لا تزال بالمدن التي فيها الأضرحة الكبرىٰ كطنطا ودسوق وقنا وأسيوط.

ورابع هذه الفئات: هي بعض الاتجاهات الإسلامية[1] التي تحتفل بالمولد بإقامة الأمسيات الدينية التي تذكِّر بهديه ﷺ. ولو لم يكن في ذلك غير موافقة

---

(١) وكأن هذه الفئات ظنت أن ذلك حل وسط بين بدعية هؤلاء وما ظنوه مجافاة لحق صاحب النبوة ﷺ، ولئن سلمنا لهم بالتفريق ـ مع عدم صحته ـ يبقىٰ أن بدعة العادة لا تنطبق علىٰ اتخاذ الأعياد؛ لما فيها من التشريع وكونها خصوصية شرعية.

المبتدعة أو إثبات شبهة سنِّية الاحتفال أو شرعيته لدى العوام لكفى بها ضرراً؛ فكيف إذا انضاف إلى ذلك قَصْرهم للخطب في ذلك اليوم على مولد الرسول ﷺ مما يدعو إلى تعظيم ذلك اليوم على وجه التقرب. والغريب أن بعضهم يقيس ذلك الاحتفال على احتفال النصارى بعيد الميلاد أو احتفال القوميين برموزهم السياسية، ويقولون: النبي ﷺ أوْلى بالتعظيم. إن من الظلم مساواة النبي ﷺ بهؤلاء، أو الاحتجاج على شرعية ذلك بصنيع هؤلاء وقد أُمِرنا بمخالفتهم.

البعد الاعتقادي للاحتفال بالمولد:

يعتقد قطاع عريض من المتصوفة أن الرسول ﷺ قد خُلِقَ من نور (أي أزلي) ويسمون ذلك بـ (الحقيقة المحمدية) التي سبقت خلق آدم ثم حلَّت فيه حين خلق، وما زالت تنتقل من آدم إلى من بعده من الأنبياء حتى بلغت شخصه ﷺ، وهي التي يستمد منها جميع الأولياء - عندهم - علمهم وقوتهم وتصرفهم، أو هي التي تنتقل بما يعرف عندهم بـ (القطب الغوث)، وهذا الكلام تلفيق بين اليونانية وفق نظرية الفيض النوراني وبين الخرافات الهندوكية التي تقول بتناسخ الأرواح.

والواقع أن ثمة رابطاً قوياً بين نظرية الحقيقة المحمدية(١) وبين احتفالهم بالمولد هي أن الحقيقة تجسدت في شخص النبي ﷺ في مولده، وهذا ما يهم القوم. أما الشريعة التي جاءت بعد البعث فليست لهم؛ لأن علمهم لدنِّيٌّ مستمد من هذه الحقيقة.

ولهذا فهم يُقدِّسون أولياءهم الذين استمدوا من الرسول ﷺ العلم والتصريف، ولأن الرسول ﷺ - كما يعتقدون - حي في قبره، وأن الحقيقة قد

---

(١) انظر على سبيل المثال الكلام عن الحقيقة المحمدية ونقدها في كتاب (الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة) للأستاذ عبد الله عبد الخالق.

انتقلت إلىٰ مَـنْ بَعدَه مـن الأولياء؛ فلماذا يُحـزن عليه وهـو لـم يمت[(١)]؟ ولهـذا لا نعجب إذا حدَّثوا أن الرفاعي (صاحب الطريقة الرفاعية) قـد مـدَّ له النبي ﷺ يـده مـن القبر فصافحه وأعطاه العهد، أو قالوا قريبـاً من ذلك عـن البـدوي أو الدسوقي أو الشاذلي. لكل هذا فهم يقدسون يوم المولد دون غيره.

وتعجب بعد هذا من مسـائل يثيـرونها[(٢)]: هل يوم المولد أفـضل، أو ليلة القدر؟ ويُصطنع لها أقوال يُنتصر في آخرها لقولهم وهو واه جداً.

ومثال آخر: هو قولـهم حول وجوب إظهار الفرحة بيوم المولد مثل أيام العيدين. وتُفرع عن هذا مسألة هي: ما حكم صيام يوم المولد؟

دعوات الإصلاح:

كان لبعض علماء الأزهر وغيرهم جهود مشكورة في توعية هؤلاء المحتفلين بالمولد والإنكار عليهم، وتقدَّمـهم في ذلك رهط من العلماء والمشايخ ـ رحمهم الله جـميعاً ـ كان من أبرزهم: الشيخ علي محفوظ، والشيخ حسنين مخلوف، والشـيخ المراغي، بالإضـافـة إلىٰ عـــدد مـن رجــال الدعـوة والإصـلاح مـثل: الشيخ حسن البنا الذي حــاول أن يُحَمِّل الأزهر ووزير الأوقـاف المسؤولية؛ إذ كـان يرىٰ أن التـصـوف بهـذا الشكل قـد أضر بالـدين علىٰ تلك الصــورة الدخيلة فأصبح شراً لا يطاق.

ومنهم الشيخ محمد رشيد رضا الـذي شدد كثيراً علىٰ ممارسات التـصوف، لكنه كان يشارك أحياناً في الاحتفال بالمولد بإلقـاء الكلمات أو تأليف الرسائل في بيان مكانته ﷺ وواجب الأمة نحوه.

---

(١) يعتقدون أنه لم يمت؛ لأنـه حقيقة نورانية كـالملائكة، الله توحيـد وليس وحدة، محمد الأنور البلتاجي، ص ٤٣٢ وما بعدها، التصوف الإسلامي لزكي مبارك، ص ٢٠٦ ـ ٢١٠، وخطاب مفتوح لشيخ مشايخ الطرق الصوفية لعبد الرحمن الوكيل، ص ٥٢.

(٢) انظر هذه المسائل في الكتاب القيم: «القول الفصل في حكم الاحتفال بمولد خير الرسل ﷺ».

كما ساهمت جماعة أنصار السنة المحمدية بمصر في ذلك من خلال مؤلفات مشايخها: محمد حامد الفقي، وعبد الرحمن الوكيل، وجميل غازي، ومن جاء بعدهم، وعلىٰ صفحات مجلة الهدي النبوي ومجلة التوحيد.

وكان للجمعية الشرعية كذلك جهود مشكورة وإن لم تكن في مستوىٰ جماعة أنصار السنة، وكان ممن تكلم في بدع الموالد: الشيخ عبد اللطيف مشتهري - رحمه الله - ويضاف إلىٰ هذا جهود الدعوة السلفية التي حملت علىٰ عاتقها أيضاً الرسالة نفسها.

وفي السنوات الأخيرة، أثمرت تلك الجهود المباركة أثراً ملموساً في توعية الناس بمضار الابتداع وثمار الاتباع، وهكذا يُقال للدعاة في كل بلد ابتلي بالمبتدعة: اجتهدوا في تبصير الناس بالحق، فعلىٰ الحق نور لا تطيقه خفافيش الجهالة والظلام.

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

مظاهر الغلو في قصائد المديح النبوي

سليمان بن عبد العزيز الفريجي

مظاهر الغلو
في قصائد المديح النبوي

سليمان بن عبد العزيز الفريجي

منذ أن انتشر الإسلام أقبل الأدباء على مدح نبيه محمد ﷺ بمدائح كثيرة، حفظ لنا التاريخ شيئاً منها، ومن أقدمها ما جاء عن أم معبد ـ رضي الله عنها ـ من وَصْفها للنبي ﷺ بعدما حل بخيمتها في طريق هجرته إلى المدينة، وكان مِنْ وَصْفها: «إن صَمَتَ فعليه الوقار، وإن تكلَّم سماه وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاه من بعيد، وأحسنه وأجمله من قريب، حلو المنطق، لا نزر ولا هزر»[(١)].

كما كان لشعراء الرسول ﷺ كحسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن زهير، وكعب بن مالك، والعباس بن مرداس.. وغيرهم قصائد عدة في مدحه ورثائه، منها قصيدة حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ التي مطلعها:

بطيبة رَسْمٌ للرسول ومَعهد ... منيرٌ، وقد تعفو الرسوم وتهْمَدُ
ولا تنمحي الآيات من دار حُرْمة ... بها منبرُ الهادي الذي كان يصعدُ

ومنها قصيدة كعب بن زهير ـ رضي الله عنه ـ التي قالها عند إسلامه، واعتذر بها لرسول الله ﷺ، وألقاها بين يديه في مسجده وسط صحابته، ومطلعها:

بانت سعادُ فقلبي اليوم متبولُ ... مُتَيَّم إثرها لم يُجْزَ مكبولُ

وفيها يقول:

أنبئتُ أن رسول الله أوعدني ... والعفوُ عند رسول الله مأمولُ
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة ... القرآن فيها مواعيظ وتفصيلُ
لذاك هيب عندي إذ أكلمه ... وقيل إنك مسبور ومسؤولُ

(١) المستدرك على الصحيحين: ٩/ ٣، وغريب الحديث لابن قتيبة: ١/ ٤٦٣، وانظر الإصابة في ترجمة أم معبد.

من ضيغم من ضِراء الأُسْد مُخْدرة ببطن عثّر غيل دونه غيلُ
إن الرسولَ لسيف يُستضاءُ به مهند من سيوف الله مسلولُ

بل إن هناك من شعراء الكفار من مدحه وأثنى على أخلاقه الكريمة، كعمِّه أبي طالب في قصيدته المشهورة، ومنها قوله:

وأبيض يُستسقى الغمامُ بوجهه ثمالُ اليتامى، عصمةٌ للأراملِ

وكالأعشى الكبير ميمون بن قيس الذي مدح النبي ﷺ بقصيدة رائعة، وجاء بها لِيُسلِمَ عنده ويلقيها بين يديه، ولكن قريشاً أغرته بالدنيا فعاد ومات كافراً. ومن قصيدته قوله:

نبيٌّ يرى ما لا ترون، وذكره أغار - لعمري - في البلاد وأنجدَا
له صَدَقاتٌ ما تُغِبُّ ونائل وليس عطاءُ اليوم مانعه غدَا

وهكذا اتصل مدح النبي ﷺ في حياته، ورثاؤه بعد مماته، وذكر أخلاقه وأوصافه عند أصحابه والتابعين دون غلو أو تجاوز لحدود المشروع.

وبعد قيام دولة بني أمية والحوادث التي جرت لآل بيت علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وتشيُّع من تشيَّع لهم بدأت المبالغة في مدحهم والثناء عليهم، حتى اشتهر شعراء بذلك، وأكثروا منه، كالكُمَيْت الأسدي، ودَعْبل الخزاعي، والشريف الرضي، ومهيار الديلمي، وهؤلاء جاءت مبالغتهم من غلوهم في رجالات آل البيت، وتفضيلهم على من يرونهم أعداءً لهم من الأمويين وغيرهم؛ فموقفهم في الحقيقة سياسي أكثر من كونه معتمداً على اقتناعاتهم الشرعية؛ فلهذا جاء كلامهم على آل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - دون غيرهم، حتى النبي ﷺ قلَّ مديحهم له في مقابل مديحهم لآل بيت علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -.

ومن أشعارهم هاشميات الكُمَيْت وأشهرها: البائيتان واللامية والميمية،

يقول في إحدىٰ البائيتين :

إلى النفر البيض الذين بحبِّهم إلى الله فيما نالني أتقرَّبُ
بني هاشم رهط النبي فإنني بهم ولهم أرضى مراراً وأغضبُ

وما جاء عن هؤلاء من المدح الخاص بالنبي ﷺ يكاد يكون مدحاً معتاداً لا نجد فيه ما سنجده في مدائح الصوفية في القرن السابع . ومن ذلك قول الكُمَيت :

وأنت أمينُ الله في الناس كلِّهم عليها وفيها احتار شرق ومغربُ
فبُوركت مولوداً وبُوركت ناشئاً وبُوركت عند الشَيب إذ أنت أشيبُ
وبُورك قبرٌ أنت فيه وبُوركت به وله أهل لذلك يثربُ
لقد غيَّبوا براً وصدقاً ونائلاً عشيةَ واراك الصفيح المنصَّبُ

ومع ذلك كان مدح من مضىٰ لآل البيت أكثره صادقاً ؛ لأنهم يمدحونهم والدنيا ليست بأيديهم خلاف شعراء الدولة العبيدية المنتسبة - زوراً - إلىٰ فاطمة الزهراء - رضي الله عنها - التي كان الشعراء يتزلفون إلىٰ حكامهم بمدحهم ومدح آل البيت ومنه مدح النبي ﷺ ، وهذا المدح غير داخل في حقيقته في المدائح النبوية ؛ لأنه مدح من أجل الدنيا ، لا لحبهم أو التقرب إلىٰ الله بمدحهم ؛ ولهذا وصل الأمر ببعضهم إلىٰ حد الشرك كابن هانئ الأندلسي ؛ حيث يقول في مدح المعز لدين الله الفاطمي :

ما شئتَ، لا ما شاءتِ الأقدارُ فاحكم فأنت الواحدُ القهارُ

ويقول :

ولك الجواري المنشآتُ مَواخراً تجري بأمرك والرياحُ رخاءُ

ولهذا كان مدح هؤلاء منصباً علىٰ حكام الدولة العبيدية ومَن يزعم هؤلاء الحكام محبتهم من رجالات آل البيت ، ويقلُّ فيه مدح النبي ﷺ .

وتستمر المدائح النبوية دائرة حول أوصاف النبي ﷺ الخُلُقية والخَلْقية

المعروفة، ولا نجد ذلك الغلو الذي يخرج بالمدائح النبوية إلىٰ رفع النبي ﷺ فوق مقامه البشري، وإضفاء بعض الصفات الإلهية عليه إلا في القرن السابع الذي يعرف - في التاريخ الإسلامي - بانتشار التصوف فيه إلىٰ حد كبير، مما أثر تأثيراً كبيراً علىٰ الشعراء الذين تسابقوا في مضمار المدائح النبوية، بنَفَس يخالف المدائح السابقة، ويوافق الفكر التصوفي.

وكانت البداية الفعلية لهذه المدائح بهذا النَفَس الصوفي المتميز علىٰ يد محمد ابن سعيد البوصيري، المتوفىٰ في الإسكندرية سنة ٦٩٥هـ، فقد نظم عدة قصائد في المدائح النبوية، وأشهرها قصيدتان:

الأولىٰ الميمية، وهي علىٰ رواية الديوان (١٦٠) بيتاً، ومطلعها:

أَمِنْ تذكُّرِ جيرانٍ بذي سَلَمِ ... مزجت دمعاً جرى من مقلة بدَمِ

والأخرىٰ الهمزية، ومطلعها:

كيف ترقى رقيَّك الأنبياءُ ... يا سماءً ما طاولتها سماءُ

والميمية أشهر وأذْيَع عند عامة المتصوفين ومقلديهم، وقد نسجت حولها المنامات والأساطير، ابتداءً بناظمها الذي جاء عنه أنه بسبب استشفاعه بهذه القصيدة مسح النبي ﷺ في المنام عليه فبرئ من فالج كان أبطل نصفه وألقىٰ عليه بردة، فسميت القصيدة لذلك بالبردة، ونسجت الأساطير لكل بيت من أبياتها، وشاع التبرك والاستشفاء بها، فصارت تسمَّىٰ أيضاً: البُرْأَة، والبُروة، وقصيدة الشدائد، وغالىٰ المتصوفة وأتباعهم فيها «حتىٰ عملوها تميمة تُعلَّق علىٰ الرؤوس، وزعموا فيها مزاعم كثيرة من أنواع البركة، وهم علىٰ ذلك إلىٰ يومنا هذا»(١).

ويظهر أن كل هذه التسميات كانت بعد موت البوصيري، أما هو فسمَّاها: (الكواكب الدريَّة في مدح خير البريَّة).

---

(١) دراسة محمد النجار لبردة البوصيري، ص ٦٢ عن كتاب المقفىٰ للمقريزي.

وقد أجمع معظم الباحثين على أن ميمية البوصيري أفضل قصيدة في المديح النبوي من الناحية الفنية الأدبية - لا الشرعية - إذا استثنينا لامية كعب بن مالك (البردة الأم)، حتى قيل: إنها أشهر قصيدة في الشعر العربي بين العامة والخاصة.

ومهما يكن من أمر فقد أثَّرت ميمية البوصيري في المدائح النبوية تأثيراً عميقاً؛ حيث نقلتها مضموناً وقالباً.

أما من حيث المضمون فقد نقلت المدائح النبوية من المدح المعتاد للنبي ﷺ بأوصافه المشهورة المعروفة إلى أوصاف غلو ومبالغة «على نحو إعجازي خارق، بالغ المثالية، بالغ الكمال، وبالغ الجلال... يرقى بالنبي إلى درجة ربانية»(١)، ويسمون هذه الأوصاف: (الحقيقة المحمدية) التي يدَّعي المتصوفة أن غيرهم لا يعرفونها؛ ولهذا فهم يحملون كل غلو في ميمية البوصيري وغيره ممن سار على دربه على أنه من الحقيقة المحمدية التي ينفردون بمعرفتها للنبي ﷺ.

أما من حيث القالب فقد جعل المدائح النبوية تتكون من ثلاثة أجزاء:

الأول: يسمَّى النسيب النبوي، وهو التشوق إلى المدينة النبوية التي تضم قبر النبي ﷺ وفيها جرى أغلب أحداث سيرته، ويتلو هذا النسيب بعض الحِكَم التي تحذر من الدنيا وأهواء النفس، وهذا الجزء يمثل من ميمية البوصيري الأبيات من (١ - ٣٣)، ومن أجملها قوله:

والنفسُ كالطفل إن تُهملهُ شبَّ على ... حبِّ الرضاع، وإن تَفطمهُ ينفطمِ

وقوله:

وخالف النفسَ والشيطانَ واعصهما ... وإن هما محَّضاك النصحَ فاتهمِ
ولا تُطع منهما خصماً ولا حكماً ... فأنت تعرف كيدَ الخصمِ والحكمِ

---

(١) دراسة محمد النجار للبردة، ص ١١.

والجزء الثاني: مديح النبي ﷺ وعرض سيرته، وهذا الجزء هو غرض القصيدة، وفيه يذكر الشاعر سيرته من مولده إلىٰ وفاته ﷺ، ويتكلم علىٰ معجزاته وخصائصه . . . ويمثل هذا الجزء من القصيدة الأبيات من (٣٤ـ١٣٩)، ويبدؤه بقوله:

محمد سيد الكونَين والثقلَيـ ـن والفريقين من عُرب ومن عَجَمِ

وفي هذا الجزء أغلب الغلو المشار إليه من قبل، وكأن بعض المتأخرين عن البوصيري أحسّ شدة هذا الغلو فأراد أن يخففه فزاد في القصيدة ـ وما أكثر ما زيد عليها ـ بيتاً ناشزاً ألقاه في مكان غير مناسب في القصيدة، وهو قوله:

فمَبْلَغ العلم فيه أنه بشر وأنه خيرُ خلق الله كلِّهمِ

ولم يرض كثير من الصوفية هذا البيت للنص فيه علىٰ بشريته وأنها منتهىٰ العلم فيه، فغيروه إلىٰ:

مولاي صلِّ وسلم دائماً أبداً على حبيبك خير الخلق كلِّهمِ

ونسبوا فيه مناماً خاصاً للبوصيري، فيه أن النبي ﷺ هو الذي ألقىٰ بشطره الثاني علىٰ البوصيري.

والجزء الثالث: هو إقرار الشاعر بذنوبه وطلب العفو عنها، ويشمل هذا الجزء الأبيات من (١٤٠ ـ ١٦٠) ويبدأ إقراره بقوله:

خدمته بمديح أستقيل به ذنوب عُمْرٍ مضى في الشعرِ والخدمِ

ثم يقول:

فيا خسارةَ نفس في تجارتها لم تشتر الدين بالدنيا ولم تَسُمِ

ولكن طلبه للعفو كان موجهاً للنبي ﷺ وهذا من أكبر انحرافات البوصيري، وقد كرر هذا في عدة أبيات، منها:

إن آتِ ذنباً فما عهدي بمنتقض من النبي، ولا حبلي بمنصرمِ
فإن لي ذمةً منه بتسميتي محمداً، وهو أوفى الخلق بالذممِ
إن لم يكن في معادي آخذاً بيدي فضلاً فقُل يا زلةَ القدمِ
يا أكرم الرسل ما لي مَن ألوذ به سواك عند حلول الحادث العَمِمِ

وعندما ذكر العفو والرحمة من الله رجا أن تكون الرحمة مقسومة حسب العصيان لا الإحسان، فقال:

لعلَّ رحمة ربي حين يقسمها تأتي على حسب العصيان في القسمِ

وفي آخر هذا الجزء يختم القصيدة بالصلاة والسلام الدائمين على النبي ﷺ، وهذا الجزء يكثر فيه دعاء النبي ﷺ، والاستغاثة به، وإضافة صفات ربانية إليه، وإن كان الجزءان السابقان لا يخلوان من مثل ذلك، كقوله:

أقسمتُ بالقمر المنشق أن له من قلبه نسبة مبرورة القسمِ

وقوله:

ما سامني الدهر ضيماً واستجرت به إلا ونلت جواراً منه لم يُضمِ

هذه هي ميمية البوصيري التي كان لها أعظم الأثر في المديح النبوي، وتحويلها من مسارها السليم إلى مسار مليء بالانحرافات الشرعية، وقد ساعد المتصوفة وأصحاب الطرق على نشرها بغنائها وإنشادها وتلحينها في كل مناسبة حتى الحروب فضلاً عن الأفراح والأحزان والموالد المبتدعة واحتفالات الحجيج.

ولم يقتصر أثرها على العامة، بل تعداه إلى الخاصة؛ إذ تزاحم الشعراء العرب وغير العرب على تقليدها، وتفننوا في ذلك حتى أنشؤوا فيها فنوناً أدبية منها:

أ ـ البديعيات التي تسير على نهجها وزناً وروياً ومضموناً وأجزاءً، ويكون كل بيت من أبياتها خاصاً بلون من ألوان علم البديع في البلاغة كبديعية صفي

الدين الحلي (٧٥٠هـ) ومطلعها:

إن جئت سلْعاً فسل عن جيرة العلم واقرا السلام على عرب بذي سَلَمِ

وبديعية عز الدين الموصلي ومطلعها:

براعة تستهل الدمع في العلم عبارة عن نداء المفرد العلم

ب ـ المدائح النبوية التي فيها التورية بكل سور القرآن، ومن أشهرها قصيدة ابن جابر الأندلسي (٧٨٠هـ)، ومطلعها:

في كل فاتحة للقول معتبرةْ حق الثناء على المبعوث بالبقرةْ

وقد عارض ابن جابر في قصيدته هذه عدة شعراء حتىٰ أُلِّف فيها كتاب مستقل وهو كتاب: (المدائح النبوية المتضمنة لسور القرآن الكريم، لهاشم الخطيب).

ج ـ معارضتها وتشطيرها وتخميسها وتسبيعها... ومن أشهر من عارضها من المحدثين: محمود سامي البارودي بمطولة بلغت (٤٤٧ بيتاً) هي: (كشف الغمة في مدح سيد الأمة!)، ومطلعها:

يا رائد البرق يمم دارة العلم واحْدُ الغمام إلى حي بذي سَلَمِ

وأحمد شوقي في قصيدة في (١٩٠ بيتاً) سماها: (نهج البردة)، مطلعها:

ريم على القاع بين البان والعلم أحلَّ سفك دمي في الأشهر الحرمِ

وقد زاد الغلو في المدائح النبوية منذ عهد البوصيري إلىٰ بدايات العهد الحديث، ومن أمثلة هذا الغلو والمغالين محمد بن أبي بكر البغدادي الذي صنَّف ديواناً كاملاً باسم: (القصائد الوترية في مدح خير البرية) نَظَم فيه (٢٩ قصيدة)، وكل قصيدة منها (٢١ بيتاً). بحيث تبدأ أبيات كل قصيدة بحرف وتنتهي به نفسه، ومِن مَدْحه الغالي قوله:

أغثني، أجرني، ضاع عمري إلى متى ... بأثقال أوزاري أراني أُرزأ

وقوله :

ذهاباً ذهاباً يا عصاةُ لأحمد ... ولوذوا به مما جرى وتعوَّذوا

ذنوبكم تُمحى وتُعطون جنة ... بها دُرَرٌ حصباؤها وزمرد

ومن أشد الغالين : عبد الرحيم البرعي اليماني ؛ فله ديوان شعر أكثره مدائح نبوية ، ومن مَدْحه الغالي قوله :

سيد السادات من مضر ... غوثُ أهل البدو والحضر

وقوله :

يا سيدي يا رسول الله، يا أملي ... يا مَوْئلي، يا ملاذي، يوم تلقاني

هب لي بجاهك ما قدَّمتُ من زلل ... جوداً ورجح بفضل منك ميزاني

واسمع دعائيَ واكشف ما يساورني ... من الخطوب ونفِّسْ كُلَّ أحزاني

وكذلك أكثر من عارض البردة قديماً وحديثاً - وما أكثرهم - تأثَّر بما فيها من غلو .

وقد تأثر كذلك المتأخرون بهذا الغلو ، فمستكثر ومستقل ، فهذا البارودي يقول :

أبكاني الدهر حتى إذ لجأت به ... حنا عليّ وأبدى ثغر مبتسمِ

وهذا أحمد شوقي يقول :

فالطف لأجل رسول العالمين بنا ... ولا تزد قومه خسفاً ولا تَسم

ويقول في أحد المدائح الخديوية :

إذا زرت يا مولاي قبر محمد ... وقبَّلت مثوى الأعظم العطرات

فقل لرسول الله: يا خير مرسل ... أبثك ما تدري من الحسرات

وهذه شاعرة معاصرة ألفت كتاباً كاملاً من شعر التفعيلة باسم : (بردة

الرسول) من أجل أن تُشفىٰ من مرض عانت منه طويلاً، ملأته بالغلو، ومن مثل قولها:

يا سيدي، اسمع دعائي ... كن مُعين

وأجب رجائي، يا محمدنا الأمين

أما هذا الغلو عند شعراء الصوفية ومقلديهم فأشهر من أن أشير إليه هنا.

ومما سبق نستخلص أن المدائح النبوية الغالية منذ البوصيري ومن قلده لا علاقة لها بالمدائح النبوية قبلها؛ لأنه «شتان بين التصور الواقعي البشري كما صوره شعراء المديح النبوي الأوائل من أمثال كعب بن زهير، وكعب بن مالك وحسان بن ثابت، ومعاصريهم، وبين التصور المتأخر للرسول -عليه الصلاة والسلام- عند شعراء المديح النبوي المتأخرين الذين أحالوا شخصية الرسول ﷺ إلىٰ سلسلة طويلة من الخوارق والمعجزات والقدرات فوق الطبيعية، حتىٰ بات النبي ﷺ ذا طبيعة إلهية لا بشرية»(١).

ومع هذا فقد بقي كثير من الشعراء قديماً وحديثاً بمعزل عن هذا الغلو، ولكن الحديث الآن ليس عنهم، والله أعلم.

---

(١) دراسة النجار، ص ٢٦.

قوادح عقدية
في بردة البوصيري

د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

قوادح عقدية
في بردة البوصيري

د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن ميمية البوصيري - المعروفة بالبردة - من أشهر المدائح النبوية وأكثرها ذيوعاً وانتشاراً؛ ولذا تنافس أكثر من مائة شاعر في معارضتها، فضلاً عن المشطِّرين والمخمِّسين والمسبِّعين، كما أقبل آخرون على شرحها وتدريسها، وقد تجاوزت شروحها المكتوبة خمسين شرحاً، فيها ما هو محلًّى بماء الذهب! وصار الناس يتدارسونها في البيوت والمساجد كالقرآن.

يقول الدكتور زكي مبارك: «وأما أثرها في الدرس، فيتمثل في تلك العناية التي كان يوجهها العلماء الأزهريون إلى عقد الدروس في يومي الخميس والجمعة لدراسة حاشية الباجوري على البردة، وهي دروس كانت تتلقاها جماهير من الطلاب، وإنما كانوا يتخيرون يومي الخميس والجمعة؛ لأن مثل هذا الدرس لم يكن من المقررات فكانوا يتخيرون له أوقات الفراغ»(١).

وقد أطلق البوصيري على هذه القصيدة «البردة» من باب المحاكاة والمشاكلة للقصيدة الشهيرة لكعب بن زهير - رضي الله عنه - في مدح رسول الله ﷺ؛ فقد اشتهر أن النبي ﷺ أعطى كعباً بردته حين أنشد القصيدة - إن صح ذلك -(٢) فقد

---

(١) المدائح النبوية، ص ١٩٩.

(٢) يقول ابن كثير - رحمه الله - في البداية والنهاية (٤/ ٣٧٣): «ورد في بعض الروايات أن رسول الله ﷺ أعطاه بردته حين أنشده القصيدة.. وهذا من الأمور المشهورة جداً، ولكن لم أر ذلك في شيء من هذه الكتب المشهورة بإسناد أرتضيه؛ فالله أعلم».

ادعىٰ البوصيري - في منامه - أن النبي ﷺ ألقىٰ عليه بردة حين أنشده القصيدة!!

وقد سمَّىٰ البوصيري هذه القصيدة أيضاً بـ «الكواكب الدرية في مدح خير البرية»[1]. كما أن لهذه البردة اسماً آخر هو البرأة؛ لأن البوصيري كما يزعمون برئ بها من علته، وقد سُمِّيت كذلك بقصيدة الشدائد؛ وذلك لأنها - في زعمهم - تقرأ لتفريج الشدائد وتيسير كل أمر عسير.

وقد زعم بعض شراحها أن لكل بيت من أبياتها فائدة؛ فبعضها أمان من الفقر، وبعضها أمان من الطاعون[2].

يقول محمد سيد كيلاني - أثناء حديثه عن المخالفات الشرعية في شأن البردة - : «ولم يكتف بعض المسلمين بما اخترعوا من قصص حول البردة، بل وضعوا لقراءتها شروطاً لم يوضع مثلها لقراءة القرآن، منها: التوضؤ، واستقبال القبلة، والدقة في تصحيح ألفاظها وإعرابها، وأن يكون القارئ عالماً بمعانيها، إلىٰ غير ذلك. ولا شك في أن هذا كله من اختراع الصوفية الذين أرادوا احتكار قراءتها للناس، وقد ظهرت منهم فئة عرفت بقراء البردة، كانت تُستدعىٰ في الجنائز والأفراح، نظير أجر معين»[3].

وأما عن مناسبة تأليفها فكما قال ناظمها: «كنت قد نظمت قصائد في مدح رسول الله ﷺ، ثم اتفق بعد ذلك أن أصابني خِلْط فالج أبطل نصفي، ففكرت في عمل قصيدتي هذه البردة، فعملتها، واستشفعت بها إلىٰ الله في أن يعافيني، وكررت إنشادها، وبكيت ودعوت، وتوسلت ونمت، فرأيت النبي ﷺ، فمسح علىٰ وجهي بيده المباركة، وألقىٰ عليّ بردة، فانتبهت ووجدت فيّ نهضة؛ فقمت

---

(١) انظر مقدمة محقق ديوان البوصيري، ص ٢٩.

(٢) انظر المدائح النبوية لزكي مبارك، ص ١٩٧.

(٣) مقدمة ديوان البوصيري، ص ٢٩، ٣٠.

وخرجت من بيتي، ولم أكن أعلمت بذلك أحداً، فلقيني بعض الفقراء، فقال لي: أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله ﷺ، فقلت: أيّها؟ فقال: التي أنشأتها في مرضك، وذكر أوّلها، وقال: والله لقد سمعتها البارحة وهي تنشد بين يدي رسول الله ﷺ، فرأيت رسول الله ﷺ، يتمايل وأعجبته، وألقىٰ علىٰ من أنشدها بردة، فأعطيته إياها، وذكر الفقير ذلك، وشاع المنام»(١).

ففي هذه الحادثة تلبّس البوصيري بجملة من المزالق والمآخذ، فهو يستشفع ويتقرب إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ بشرك وابتداع وغلو واعتداء ـ كما سيأتي موضّحاً إن شاء الله.

ثم ادعىٰ أنه رأىٰ النبي ﷺ دون أن يبيّن نَعْته؛ فإن من رأىٰ النبي ﷺ حسب صفاته المعلومة فقد رآه؛ فإن الشيطان لا يتمثل به ـ كما ثبت في الحديث ـ.

ثم ادعىٰ أن النبي ﷺ مسح علىٰ وجهه وألقىٰ عليه بردة، فعوفي من هذا الفالج، فتحققت العافية بعد المنام دون نيل البردة! ثم التقىٰ البوصيري ـ في عالم اليقظة ـ بأحد المتصوفة وأخبره بسماع القصيدة بين يدي الرسول ﷺ، وأن الرسول ﷺ تمايل إعجاباً بالقصيدة، وهذا يذكّرنا بحديث مكذوب بأن النبي ﷺ تواجد عند سماع أبيات حتىٰ سقطت البردة عن منكبيه وقال: «ليس بكريم من لم يتواجد عند ذكر المحبوب».

قال ابن تيمية: «إن هذا الحديث كذب بإجماع العارفين بسيرة رسول الله ﷺ وسنته وأحواله»(٢).

وأما عن استجابة دعاء البوصيري مع ما في قصيدته من الطوامّ، فربما كان اضطراره وعظم فاقته وشدة إلحاحه السبب في استجابة دعائه.

---

(١) فوات الوفيات لمحمد بن شاكر الكتبي: ٢/ ٢٥٨.
(٢) مجموع الفتاوىٰ: ١١/ ٥٩٨.

يقول ابن تيمية: «ثم سبب قضاء حاجة بعض هؤلاء الداعين الأدعية المحرمة أن الرجل منهم قد يكون مضطراً ضرورة لو دعا الله بها مشرك عند وثن لاستُجيب له؛ لصدق توجهه إلىٰ الله، وإن كان تحري الدعاء عند الوثن شركاً، ولو استجيب له علىٰ يد المتوسل به، صاحب القبر أو غيره لاستغاثته، فإنه يعاقب علىٰ ذلك ويهوي به في النار إذا لم يعفُ الله عنه، فكم من عبد دعا دعاءً غير مباح فقضيت حاجته في ذلك الدعاء، وكان سبب هلاكه في الدنيا والآخرة»(١).

وأما عن التعريف بصاحب البردة فهو: محمد بن سعيد البوصيري نسبة إلىٰ بلدته أبو صير بين الفيوم وبني سويف بمصر، ولد سنة ٦٠٨هـ، واشتغل بالتصوُّف، وعمل كاتباً مع قلة معرفته بصناعة الكتابة، ويظهر من ترجمته وأشعاره أن الناظم لم يكن عالماً فقيهاً، كما لم يكن عابداً صالحاً؛ حيث كان ممقوتاً عند أهل زمانه لإطلاق لسانه في الناس بكل قبيح، كما أنه كثير السؤال للناس، ولذا كان يقف مع ذوي السلطان مؤيداً لهم سواءً كانوا علىٰ الحق أم علىٰ الباطل.

ونافح البوصيري عن الطريقة الشاذلية التي التزم بها، فأنشد أشعاراً في الالتزام بآدابها، كما كانت له أشعار بذيئة يشكو من حال زوجه التي يعجز عن إشباع شهوتها!

توفي البوصيري سنة ٦٩٥هـ وله ديوان شعر مطبوع(٢).

وسنورد جملة من المآخذ على تلك «البردة» التي قد تعلّق بها كثير من الناس مع ما فيها من الشرك والابتداع. والله حسبنا ونعم الوكيل.

١ - يقول البوصيري:

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من   لولاه لم تُخرج الدنيا من العَدَمِ

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/ ٦٩٢، ٦٩٣، باختصار.

(٢) انظر ترجمته في مقدمة ديوان البوصيري، تحقيق محمد سيد كيلاني، ص ٥ - ٤٤، وللمحقق كتاب آخر بعنوان: «البوصيري دراسة ونقد».

ولا يخفىٰ ما في عَجُز هذا البيت من الغلو الشنيع في حق نبينا محمد ﷺ؛ حيث زعم البوصيري أن هذه الدنيا لم توجد إلا لأجله ﷺ، وقد قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، وربما عوّل أولئك الصوفية علىٰ الخبر الموضوع: «لولاك لما خلقت الأفلاك»(١).

٢ ـ قال البوصيري:

فاق النبيين في خَلق وفي خُلُق ... ولم يدانوه في علم ولا كرمِ
وكلهم من رسول الله ملتمس ... غَرفاً من البحر أو رشفاً من الدِيَمِ

أي أن جميع الأنبياء السابقين قد نالوا والتمسوا من خاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ، فالسابق استفاد من اللاحق! فتأمل ذلك وقارن بينه وبين مقالات زنادقة الصوفية كالحلاج القائل: إن للنبي نوراً أزلياً قديماً كان قبل أن يوجد العالم، ومنه استمد كل علم وعرفان؛ حيث أمدّ الأنبياء السابقين عليه.. وكذا مقالة ابن عربي الطائي أن كل نبي من لدن آدم إلىٰ آخر نبي يأخذ من مشكاة خاتم النبيين(٢).

٣ ـ ثم قال:

دع ما ادعته النصارىٰ في نبيهم ... واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن منتقداً هذا البيت: «ومن المعلوم أن أنواع الغلو كثيرة، والشرك بحر لا ساحل له، ولا ينحصر في قول النصارىٰ؛ لأن الأمم أشركوا قبلهم بعبادة الأوثان وأهل الجاهلية كذلك، وليس فيهم من قال في إلهه ما قالت النصارىٰ في المسيح ـ غالباً ـ: إنه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، بل كلهم معترفون أن آلهتهم ملك لله، لكن عبدوها معه لاعتقادهم أنها تشفع لهم

(١) انظر الصاغاني في موضوعاته، ص٤٦، رقم ٧٨، وسلسلة الأحاديث الضعيفة الموضوعة للألباني: ١/ ٢٩٩، رقم ٢٨٢.
(٢) انظر تفصيل ذلك في كتاب: محبة الرسول ﷺ لعبد الرؤوف عثمان، ص ١٦٩ ـ ١٩٦.

أو تنفعهم فيحتج الجهلة المفتونون بهذه الأبيات على أن قوله في منظومته: دع ما ادعته النصارى في نبيهم مَخْلَصٌ من الغلو بهذا البيت، وهو قد فتح ببيته هذا باب الغلو والشرك لاعتقاده بجهله أن الغلو مقصور على هذه الأقوال الثلاثة»(١).

لقد وقع البوصيري وأمثاله من الغلاة في لبس ومغالطة لمعنى حديث النبي ﷺ: «لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبده فقولوا: عبد الله ورسوله»(٢)، فزعموا أن الإطراء المنهي عنه في هذا الحديث هو الإطراء المماثل لإطراء النصارى ابن مريم وما عدا ذلك فهو سائغ مقبول، مع أن آخر الحديث يردّ قولهم؛ فإن قوله - عليه الصلاة والسلام -: «إنما أنا عبدُهُ فقولوا: عبد الله ورسوله» تقرير للوسطية تجاه رسول الله ﷺ؛ فهو عبد لا يُعبد، ورسول لا يُكذب، والمبالغة في مدحه تؤول إلى ما وقع فيه النصارى من الغلو في عيسى - عليه السلام -، وبهذا يُعلم أن حرف الكاف في قوله ﷺ: «كما أطرت» هي كاف التعليل، أي كما بالغت النصارى(٣).

ويقول ابن الجوزي - في شرحه لهذا الحديث -: «لا يلزم من النهي عن الشيء وقوعه؛ لأنَّا لا نعلم أحداً ادعى في نبينا ما ادعته النصارى في عيسى - عليه السلام - وإنما سبب النهي فيما يظهر ما وقع في حديث معاذ بن جبل لـمَّا استأذن في السجود له فامتنع ونهاه؛ فكأنه خشي أن يبالغ غيره بما هو فوق ذلك فبادر إلى النهي تأكيداً للأمر»(٤).

---

(١) الدرر السنية: ٩/ ٨١، وانظر: ٩/ ٤٨، وانظر صيانة الإنسان للسهسواني (تعليق محمد رشيد رضا)، ص ٨٨.

(٢) أخرجه البخاري، رقم ٣٤٤٥.

(٣) انظر القول المفيد: ١/ ٣٧٦، ومفاهيمنا لصالح آل الشيخ، ص ٢٣٦، ومحبة الرسول لعبد الرؤوف عثمان، ص ٢٠٨.

(٤) فتح الباري: ١٢/ ١٤٩.

٤ ـ وقال أيضاً:

لو ناسَبَت قدَره آياتُه عِظماً أحيا اسمُه حين يُدعى دارسَ الرمَمِ

يقول بعض شرّاح هذه القصيدة: «لو ناسبت آياته ومعجزاته عظم قدره عند الله ـ تعالىٰ ـ وكل قربه وزلفاه عنده لكان من جملة تلك الآيات أن يحيي الله العظام الرفات ببركة اسمه وحرمة ذكره»(١).

يقول الشيخ محمود شكري الآلوسي منكراً هذا البيت: «ولا يخفىٰ ما في هذا الكلام من الغلو؛ فإن من جملة آياته ﷺ القرآن العظيم الشأن؛ وكيف يحل لمسلم أن يقول: إن القرآن لا يناسب قدر النبي ﷺ، بل هو منحط عن قدره، ثم إن اسم الله الأعظم وسائر أسمائه الحسنىٰ إذا ذكرها الذاكر لها تحيي دارس الرم؟»(٢).

٥ ـ وقال أيضاً:

لا طيبَ يعدل ترباً ضمَّ أعظمَه طوبى لمنتشق منه وملتَثِمِ

فقد جعل البوصيري التراب الذي دفنت فيه عظام رسول الله ﷺ أطيب وأفضل مكان، وأن الجنة والدرجات العلا لمن استنشق هذا التراب أو قبّله، وفي ذلك من الغلو والإفراط الذي يؤول إلىٰ الشرك البواح، فضلاً عن الابتداع والإحداث في دين الله تعالىٰ.

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «واتفق الأئمة علىٰ أنه لا يمس قبر النبي ﷺ ولا يقبله، وهذا كله محافظة علىٰ التوحيد»(٣).

٦ ـ ثم قال:

أقسمتُ بالقمر المنشق إنّ له من قلبه نسبةً مبرورة القسَمِ

---

(١) غاية الأماني للآلوسي: ٢/ ٣٤٩.
(٢) غاية الأماني للآلوسي: ٢/ ٣٥٠، باختصار وانظر الدر النضيد لابن حمدان، ص ١٣٦.
(٣) الرد علىٰ الأخنائي، ص ٤١.

ومن المعلوم أن الحلف بغير الله ـ تعالىٰ ـ من الشرك الأصغر؛ فعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»(١).

وقال ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ: لا يجوز الحلف بغير الله ـ عز وجل ـ في شيء من الأشياء ولا علىٰ حال من الأحوال، وهذا أمر مجتمع عليه... إلىٰ أن قال: أجمع العلماء علىٰ أن اليمين بغير الله مكروهة منهي عنها، لا يجوز الحلف بها لأحد»(٢).

٧ ـ قال البوصيري:

ولا التمست غنى الدارين من يده إلا استلمت الندى من خير مستلم

فجعل البوصيري غنىٰ الدارين مُلتَمساً من يد النبي ﷺ، مع أن الله ـ عز وجل ـ قال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس: ٣١]، ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

وأمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يبرأ من دعوىٰ هذه الثلاثة المذكورة في قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].

٨ ـ قال البوصيري:

فإن لي ذمة منه بتسميتي محمداً وهو أوفى الخلق بالذمَمِ

---

(١) رواه أحمد، رقم ٤٥٠٩، والترمذي، رقم ١٥٣٤.
(٢) التمهيد: ١٤/٣٦٦، ٣٦٧.

وهذا تخرُّص وكذب؛ فهل صارت له ذمة عند رسول الله ﷺ لمجرد أن اسمه موافق لاسمه؟! فما أكثر الزنادقة والمنافقين في هذه الأمة قديماً وحديثاً الذين يتسمون بمحمد!

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله تعقيباً على هذا البيت: «قوله: فإن لي ذمة... إلى آخره؛ كذب على الله وعلى رسوله ﷺ، فليس بينه وبين اسمه محمد ذمة إلا بالطاعة، لا بمجرد الاشتراك في الاسم مع الشرك»(١).

فالاتفاق في الاسم لا ينفع إلا بالموافقة في الدين واتباع السنَّة(٢).

٩ ـ وقال البوصيري:

إن لم يكن في معادي آخذاً بيدي فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم

والشاعر في هذا البيت ينزل الرسول منزلة رب العالمين؛ إذ مضمونه أن الرسول ﷺ هو المسؤول لكشف أعظم الشدائد في اليوم الآخر، فانظر إلى قول الشاعر، وانظر في قوله ـ تعالى ـ لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الزمر: ١٣].

ويزعم بعض المتعصبين للقصيدة أن مراد البوصيري طلب الشفاعة، فلو صح ذلك فالمحذور بحاله؛ لما تقرر أن طلب الشفاعة من الأموات شرك بدليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، فسمَّى الله ـ تعالى ـ اتخاذ الشفعاء شركاً(٣).

---

(١) تيسير العزيز الحميد، ص ٢٢.

(٢) انظر الدرر السنية: ٩/ ٥١.

(٣) انظر الدرر السنية: ٩/ ٤٩، ٨٢، ٢٧١.

١٠ ـ وقال:

يا أكرم الرسل ما لي مَن ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العممِ

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله تعقيباً على هذا البيت ـ: «فتأمل ما في هذا البيت من الشرك:

منها: أنه نفى أن يكون له ملاذ إذا حلت به الحوادث إلا النبي ﷺ، وليس ذلك إلا لله وحده لا شريك له، فهو الذي ليس للعباد ملاذ إلا هو.

ومنها: أنه دعاه وناداه بالتضرع وإظهار الفاقة والاضطرار إليه، وسأل منه هذه المطالب التي لا تطلب إلا من الله، وذلك هو الشرك في الإلهية»(١).

وانتقد الشيخ عبد الرحمن بن حسن هذا البيت قائلاً: «فعظَّم البوصيري النبي ﷺ بما يسخطه ويحزنه؛ فقد اشتد نكيره ﷺ عما هو دون ذلك، كما لا يخفى على من له بصيرة في دينه؛ فقَصَر هذا الشاعر لياذه على المخلوق دون الخالق الذي لا يستحقه سواه؛ فإن اللياذ عبادة كالعياذ، وقد ذكر الله عن مؤمني الجن أنهم أنكروا استعاذة الإنس بهم بقوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]، أي طغياناً، واللياذ يكون لطلب الخير، والعياذ لدفع الشر؛ فهو سواء في الطلب والهرب»(٢).

وقال العلامة محمد بن علي الشوكاني ـ رحمه الله ـ عن هذا البيت: «فانظر كيف نفى كل ملاذ ما عدا عبد الله ورسوله ﷺ، وغفل عن ذكر ربِّه وربِّ رسول الله ﷺ. إنا لله وإنا إليه راجعون»(٣).

---

(١) تيسير العزيز الحميد، ص ٢١٩، ٢٢٠.

(٢) الدرر السنية: ٩/ ٨٠، وانظر: ٩/ ٤٩، ٨٤، ١٩٣، ومنهاج التأسيس والتقديس لعبد اللطيف ابن عبد الرحمن بن حسن، ص ٢١٢.

(٣) الدرر النضيد، ص ٢٦.

١١ ـ وقال البوصيري:

ولن يضيق رسول الله جاهك بي إذا الكريم تحلَّى باسم منتقمِ

قال الشيخ سليمان بن عبد الله: «سؤاله منه أن يشفع له في قوله: ولن يضيق رسول الله . . . إلخ، هذا هو الذي أراده المشركون ممن عبدوهم وهو الجاه والشفاعة عند الله، وذلك هو الشرك؛ وأيضاً فإن الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله فلا معنى لطلبها من غيره؛ فإن الله ـ تعالى ـ هو الذي يأذن للشافع أن يشفع لا أن الشافع يشفع ابتداءً»(١).

١٢ ـ وقال أيضاً:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

فجعل الدنيا والآخرة من عطاء النبي ﷺ وإفضاله، والجود هو العطاء والإفضال؛ فمعنى الكلام: أن الدنيا والآخرة له ﷺ، والله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: ﴿**وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَىٰ**﴾ [**الليل**: ١٣](٢).

وقوله: ومن علومك علم اللوح والقلم. . في غاية السقوط والبطلان؛ فإن مضمون مقالته أن الرسول ﷺ يعلم الغيب، وقد قال ـ سبحانه ـ: ﴿**قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ**﴾ [**النمل**: ٦٥] وقال ـ عز وجل ـ: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ [**الأنعام**: ٥٩]، والآيات في هذا كثيرة معلومة(٣).

وأخيراً: أدعو كل مسلم عَلِقَ بهذه القصيدة وولع بها أن يشتغل بما ينفع؛ فإن

---

(١) تيسير العزيز الحميد، ص ٢٢٠، وانظر الدرر السنية: ٩/ ٥٢.

(٢) انظر الدرر السنية: ٤٩، ٥٠، ٨١، ٨٢، ٨٥، ٢٦٨.

(٣) انظر الدرر السنية: ٩/ ٥٠، ٦٢، ٨١، ٨٢، ٢٦٨، ٢٧٧.

حق النبي ﷺ إنما يكون بتصديقه فيما أخبر، واتباعه فيما شرع، ومحبته دون إفراط أو تفريط، وأن يشتغلوا بسماع القرآن والسنة والتفقه فيهما؛ فإن البوصيري وأضرابه استبدلوا إنشاد وسماع هذه القصائد بسماع القرآن والعلم النافع، فوقعوا في مخالفات ظاهرة ومآخذ فاحشة.

وإن كان لا بد من قصائد ففي المدائح النبوية التي أنشدها شعراء الصحابة -رضي الله عنهم- كحسان وكعب بن زهير ما يغني ويكفي.

اللهم صلّ على محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم؛ إنك حميد مجيد.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الخاتمة

وبعد: فقد ظهرت لك ـ أخي القارئ ـ حقوق نبيك وحبيبك ﷺ، وعرفت سبيل تحقيق المحبة والتعظيم، وأنه لا يكون إلا بإقامة الدليل والبرهان على ذلك، من معرفة فضله وقدره وتقديمه على كل أحد، وسلوك كمال الأدب معه، وتصديقه في خبره، وتحقيق اتباعه وطاعته والاهتداء بهديه، واقتفاء سنَّته، والتحاكم إلى شريعته، والذب عنه وعن سنَّته وصحابته وآل بيته.

يشهد بذلك كتاب ربنا ـ عز وجل ـ وسنَّة نبينا الحبيب ﷺ، بفهم سلف هذه الأمة المهديين وأئمتها الربانيين؛ فطريقهم أهدى، وهديهم أولى، وقد رأيت الشواهد من حياتهم ماثلة ناطقة بما يجب عليك اقتفاؤه إن أردت دخول الجنة والنجاة من النار.

فتأمل الأمر، ودقق النظر بما أعطاك الله من البصيرة، وسل ربك الهداية والسداد في الصراط المستقيم(١)، ولا يغرنك كثرة المخالفين اليوم لذلك الطريق؛ فالحق لا يعرف بالكثرة ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، و«الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك»(٢)، ولا عجب من كثرة المخالفين فـ «ليس العجب

---

(١) في كل ركعة ندعو «اهدانا الصراط المستقيم»، وهي شاملة للهداية إلى الصراط والهداية في الصراط. فالهداية إلى الصراط: لزوم دين الإسلام. والهداية في الصراط: الهداية لجميع التفاصيل الدينية علماً وعملاً، (انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص ٢٢).

(٢) تهذيب الكمال، للمزي، ٢٢/ ٢٦٤.

ممن هلك كيف هلك، إنما العجب ممن نجا كيف نجا»[١].

هدانا الله وإياك سبل الهدى والرشاد، وجنبنا طريق الزلل والزيغ والفساد، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على خاتم النبيين وإمام المهتدين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

مجلة البيان - المنتدى الإسلامي

---

(١) مدارج السالكين، ٣/ ١٣٠.

الفهـــــرس

الموضوع | الصفحة